الفصل الأول

الفتح الاسلامى لجزيرة كريت

٨٢٧م / ٢١٢ هـ

- جغرافية كريت وأهميتها الاستراتيجية .
- أحوال كريت قبيل الفتح الاسلامى .
- محاولات المسلمين المبكرة لغزو الجزيرة ونتائجها .
- مناقشة أصل الأندلسيين فاتحى كريت .
- نزول الاندلسيين بالاسكندرية ومشاركتهم فى احداثها السياسية ، ثم استقلالهم بها .
- طردهم من الاسكندرية ونزولهم بكريت وفتحهم لها .
- تحليل أسباب عدم وجود مقاومة من جانب السلطات البيزنطيةوأهالى كريت ، للفاتحين المسلمين .

كريت ، هى الجزيرة ذات المائة مدينة ، التى لعبت دورا هاما فى تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين والدولة البيزنطية خلال الفترة التى امتدت من أواخر العقد الثالث من القرن التاسع ، حتى أوائل الستينات من القرن العاشر الميلادى ، وقد استحوذت خلال تلك الفترة من الزمن على جانب كبير من اهتمام بيزنطة ، وأصبح القضاء على السيادة الاسلامية على هذه الجزيرة هو الشغل الشاغل لها .

اشتهرت كريت فى العصور القديمة بأسماء متعددة ، فسميت ماكارونيسوس Macaronesos ، وأيضا «يريا» Aeria (١) نظرا للطف هواءها

---

(١) الاصل اليونانى لهذه الكلمة هو يريوس ومعناها الحرفى «طلق الهواء» .

واعتدال مناخها ، وعرفت كذلك باسم «دوليخه» Doliché بسبب تكوينها المستطيل الشـكل ، كمـا سميت ، تلخينيا Telchinia نسبة إلى الشعب المعروف بأسم «تلخينيس» Telchines ، وهو أحد الشعوب التى استوطنت كريت فى الأزمنة القديمة ، وأطلق عليها أيضا أسم «ايدايا» Idaea (١) ، والراجح أن هذا الاسم نسبة إلى جبل «أيدا» Ida أضخم جبال كريت .

أما فى العصور الوسطى فقد أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون المسلمون اسم اقريطش (٢) أو أقريطية (٣) ، وذكر المؤرخ القلقشندى أنها «تسمى أيضا (اقريطش البرليش) ومعناها بالعربية مائة مدينة (٤)» . وعرفها المؤرخون البيزنطيون باسم كريتا (Creta) (٥) .

وقد اختلفت الروايات الخاصة بتحديد أصل اسم «كريت» ، فالبعض يرجح أن هذا الاسم مشتق من «كوريتيس» Curètes وهو اسم أحد الشعوب

---

(1) Lacroix; M.L., Histoire et Description de tous les peuples, Iles de la Crece, p. 530.

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، جـ ١١ ، ص ٤٨ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ١ ، ص ٥٧ ، المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، جـ ٥ ، ص ١٥ ، ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، ص ٢٠٣ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، طبعة بيروت ، ص ٢٣٦ .

(٣) ابن رسته : الاعلام النفسية ، ص ٨٥ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، جـ ٥ ، ص ٣٧١ .

(٥) انظر كتاب المؤرخ البيزنطى كيدرينوس ، المسمى ، «موجز التاريخ» وهو مدون باليونانية ، الجزء الثانى ص ٩٢ .

وانظر كذلك :

Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum , p. 789 ; Constantim Porphyrogenetus, De Administrando. Imperio p. 104; Genesius Basileiai, p, 46, Symeon Magistri, Annales, p. 758.

التى سكنت كريت فى الأزمان القديمة ، ولعب دورا هاما فى تاريخها وحضارتها (١) . وثمة فريق آخر يعزى هذا الاسم إلى «كريس» Cres وهو اسم أول ملك حكم هذه الجزيرة ، وأطلق عليه القلقشندى اسم قراطى فقال :

«سميت بذلك لأن أول من عمرها كان اسمه قراطى» (٢) ، أما الجغرافى تيودور الصقلى فقد ذكر فى هذا الصدد رواية غلب عليها الخيال ، وتتلخص فى أن الاله المصرى آمون ضاق ذرعا بأحدى المجاعات التى حدثت فى مصر ، فهاجر منها إلى جزيرة كريت ، التى كانت تعرف آنذاك باسم «ايدايا» Idaea ، وتزوج من احدى بنات شعب «كوريتيس» وتدعى «كريتا» Creta وبعد أن تم الزواج أصبح الاله آمون ملكا على تلك الجزيرة ، التى أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم كريت نسبة إلى زوجته (٣) .

والباحث فى جغرافية كريت خلال العصور الوسطى يصادف صعوبة كبيرة ، نظرا لضآلة المعلومات الخاصة بهذا الموضوع ، فعلى الرغم من اهتمام المؤرخين البيزنطيين بسرد الصراع السياسى الذى اشتعل بين الدولة البيزنطية والمسلمين بكريت ، إلا أنهم لم يذكروا شيئا عن جغرافية الجزيرة ، بل أن الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه عن الثيمات الامبراطورية De Thematibus (٤) رغم اهتمامه الواضح بجغرافية الاقاليم التابعة للامبراطورية وكذلك الاقاليم المحيطة بها والتابعة للمسلمين والبلغار والروس ، ومختلف

(1) Lacroix, op. cit., p. 530.

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ ، وانظر كذلك ،
Lacroix, op. cit., p. 530.

(3) Lacroix, op. cit., p. 530.

(٤) تم الاطلاع على هذا المصدر فى مجموعة بون البيزنطية ، ولم نعثر به على أية معلومات تتعلق بجغرافية كريت .

الشعوب الأخرى ، إلا أنه لم يذكر شيئا البته عن جغرافية كريت ، مع أن الصراع السياسى بين فاتحيها المسلمين والدولة البيزنطية ، قد استحوذ على جانب كبير من عصر هذا الامبراطور (١) . فإذا إنتقلنا إلى المصادر العربية ، وجدنا معظم الجغرافيين المسلمين وكتاب المسالك والممالك ، قد أشاروا إلى كريت إشارات سريعة موجزة للغاية ، لا تشفى غلة الباحث فى هذه الناحية ، فعلى سبيل المثال لم يزد المقدسى عند تعرضه لها عن قوله«واقريطش تقابل مصر» (٢) وقد نحا نحوه كل من ابن رسته الذى قال « واقريطية يحيط بها ثلثمائة ميل» (٣) ، وياقوت الذى عرفها بقوله «اقريطش ... اسم جزيرة فى بحر المغرب ، يقابلها من بر افريقية لوبيا ، وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى» (٤) ، وكذلك ابن جبير الذى قال «وبينها (أى اقريطش) وبين جزيرة صقلية ، مسيرة سبعمائة ميل ، وبين هذه الجزيرة المذكورة(اقريطش) وبين الاسكندرية ستمائة ميل أو نحوها» (٥). ولكن رغم قلة المعلومات التى وردت فى هذه المصادر وغيرها ،إلا أنه يمكن الاستعانة بها فى تكوين نبذة سريعة عن جغرافية كريت .

تعتبر هذه الجزيرة احدى أربع جزر كبرى فى البحر الأبيض المتوسط(٦) وهى تتمتع بموقع استراتيجى هام أكسبها مكانة ممتازة بين سائر الجزر اليونانية فان قربها من القارات الثلاث المعروفة فى العصور الوسطى وهى آسيا وافريقية

---

(١) بشأن هذا الصراع ، انظر الفصل الرابع من هذا البحث .
(٢) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ٤٥ .
(٣) ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٨٥ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان ، حـ ٢ ، ص ٢٣٦ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ .
(٦) الثلاث جزر الاخرى هى : صقلية ، وسردينيا ، وقبرص .

وأوروبا ، جعلها مركز التقاء الحضارات المختلفة لشعوب هذه القارات ، كما جعلها مستودعا تجاريا هاما . كذلك فأن موقعها عند الحد الجنوبى للبحر الايجى (١) ، الذى ضم القسط الوافر من الجزر والبحار الداخلية ، جعلها تقسم مدخله إلى شطرين ، تتحكم فى كل منهما ، وقد هيأ لها ذلك فرض السيطرة على عديد من الجزر اليونانية فى هذا البحر والشواطىء المطلة عليه(٢)

والجزيرة ذات شكل مستطيل. يقول ابن خلدون «وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى مابين الجنوب والشرق منه (أى من بحرالروم)(٣) وفيما يتعلق بطولها فقد حدده بعض الجغرافيين بثلثمائة ميل (٤)، وحددهالبعض

---

(١) يعرف كذلك ببحر الارخبيل ، وهو بحر داخل تكون من مياه الجزء الشرق من البحر المتوسط ، فى المنطقة المحصورة بين آسيا الصغرى وأوروبا ، ويحده من الجنوب جزيرة كريت ، ومن الشرق ساحل آسيا الصغرى حتى مضيق الهللسبونت (الدردنيل) . ومن الغرب سواحل تساليا ، والهيلاس (بلاد اليونان) ، والبلوبونيز (شبه جزيرة المورة) . ويبلغ طوله من الشمال للجنوب ستمائة كيلو متر ، وعرصه فى الاجزاء الشمالية يبلغ ٢٥ كم ، وفى الوسط والجنوب يبلغ عرضه ٤٥٠ كم . انظر ،

La grande Encyclopedia, tome Troisième, p. 677.

(2) Semple, The geography of the Mediterranean region, p. 74.

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج ١ ، ص ٥٧ .

(٤) انظر على سبيل المثال ، ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٨٥ .

الادريسى : نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر ، تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، النويرى : نهاية الارب فى فنون الأدب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ .

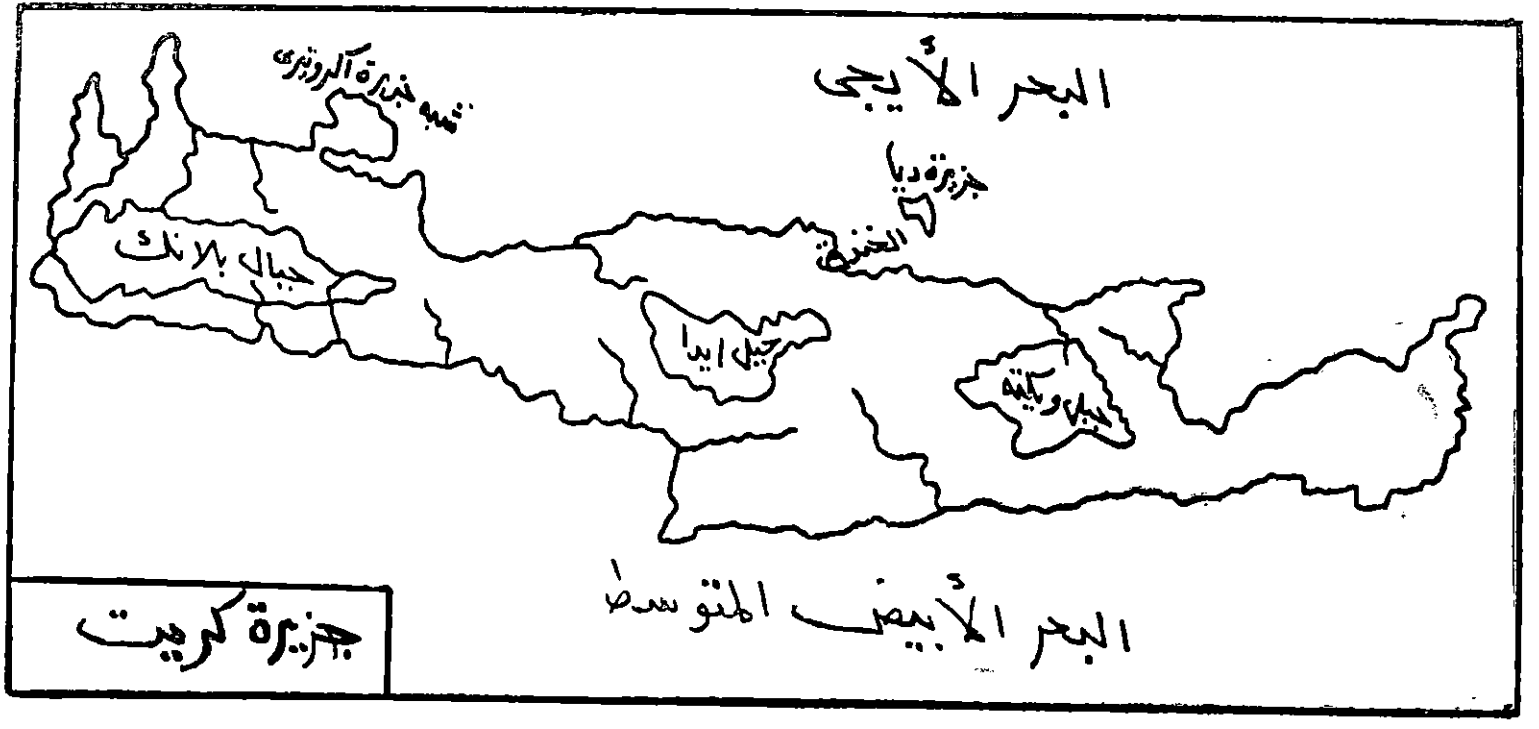
البحر الأيجي
شبه جزيرة آلروتيري
جزيرة ديا
الخنق
جبال بلانك
جبل ايدا
جبل ريكيه
البحر الأبيض المتوسط
جزيرة كريت

الآخر بثلثمائة وخمسين ميلا وأما عرضها فيتراوح ما بين مائة إلى مائة وثلاثين ميلا (١).

وسواحل الجزيرة كثيرة التعاريج مما ساعد على وجود مجموعة كبيرة من المرافىء لعل أشهرها خليج سودا Suda على الساحل الشمالى نظرا لعمقه واتساعه لعدد كبير من السفن ، فضلا عما يتمتع به من حماية طبيعية هيأتها له شبه جزيرة اكروتيرى Akrotiri القريبة منه . أما الساحل الجنوبى فخال تماما من الموانىء ، ولكنه امتاز بوجود سلسلة ضخمة من الجبال أشبه ما تكون بالحائط ، منحته الحماية الطبيعية ضد أى غزو خارجى (٢) . ومثل كل الجزر اليونانية ، فأن جزيرة كريت ذات سطح جبلى وبها مجموعة من الجبال ، أضخمها ثلاث جبال منفصلة عن بعضها تخترق الجزيرة من الشرق إلى الغرب وهى على التوالى جبل ديكته Dicté . وجبل أيدا Ida ، وجبال بلانك Blanks . على أن أكبر هذه الجبال الثلاث هو جبل ايدا ، الذى يرتفع إلى أكثر من ١٢٠٠ مترا فوق سطح البحر ، ويمتاز بوجود غابات كثيفة من الأشجار على الأجزاء المرتفعة منه ، وبالتالى أصبح مصدرا هاما للأخشاب ،

---

(١) الادريسى : نفس المصدر ، تحت الجزء الرابع من الأقليم الرابع ، النويرى نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ . والجدير بالذكر أن المراجع الحديثة قد حددت طول الجزيرة بمائة وستين ميلا ، وذكرت ان عرضها من الشمال للجنوب يتراوح ما بين ٣٥ ميلا إلى ٧,٥ ميل. وأن هذا الاختلاف بينها وبين المصادر الوسيطة فى طول وعرض الجزيرة يرجع لأحد سببين ، اما أن يكون بسبب عدم دقة المصادر الوسيطة فى تحديد الأطوال والمسافات تحديدا دقيقا لعدم وجود أجهزة القياس اللازمة لذلك فى العصور الوسطى ، أو ان تكون الجزيرة قد تعرضت للتآكل من جانب البحار المحيطة بها من كل جانب . وبشأن طول وعرض الجزيرة فى العصر الحديث انظر ،

Encyclopedia Britannica, vol 6, p. 676; Semple, op. cit., p. 74.

(2) Encyclopedia Britannica, vol 6, p. 676.

أما سفحه فأنه مغطى بالبساتين وأشجار الفاكهة من جميع الاتجاهات وهى تمتد من الشرق إلى الغرب مكونة سهلا خصيبا (١).

وبالجزيرة نهران رئيسيان يتجهان نحو الجنوب ، الأول هو متروبولى بوتاموس Metropoli Potamos ويتفرع منه عدة فروع مثل جاردانوس Jardanus ، وبيكنوس Pycnus فى أقليم جبـــال بلانك فى الغرب ؛ وأمفيماتروم Amphimatrum وأوأكسس Oaxes ، وتتثيس Tetthys وتريتون Trion وامنيسوس Amnisos ، كوئراتوس Coeratos فى أقليم جبل ايدا فى وسط الجزيرة. أما النهر الرئيسى الثانى فيدعى آنابوثيارى Anapothiari ، ويتفرع منه فروع تقع كلها فى أقليم جبل ايدا وهى ، ماساتيا Massatia ، واليكترا Electra ، وليثاكوس Lithacus ، وبوثيريوس Pothereus ، وكاتاراكتوس . أما أقليم جبل ديكتـه فى شرق الجزيرة فتوجد به بعض الأنهار الصغيرة القليلة الأهمية هى أشبـهما تكون بالغدران. (٢) والغالب أنه بعد الفتح الاسلامى للجزيرة قد تغيرت اسماء هذه الأنهار وأن كانت المصادر لم تشير إلى ذلك .

وقد امتازت جزيرة كريت بمواردها الاقتصادية الهامة، فأشتهـرت بأنتاج العسل والجبن ، ويذكر المؤرخ البيزنطى صاحب صلة ثيوفان(٣) «أن

---

(1) Lacroix, op. cit., p. 531; Semple, op. cit., p. 268.

(2) Lacroix, op. cit., p. 532; Encyclopedia Britannica, vol 6, pp. 676-677.

(٣) النص اللاتينى لهذه العبارة هو :

«non est haec alia quam terra fluens lacte et melle»

انظر :

Theophanes Continuatus, Liber II, p. 74.

هذه الارض لم تكن إلا فيضا من العسل واللبن .» ويذكر كل من جينيزيوس وكيدرينوس نفس هذا المعنى (١) . ومن اشارة أوردها المؤرخ النويرى السكندرى يفهم منها أن كريت كانت تصدر العسل والنحل والجبن لمصر والشام (٢) . ويبدو أن صناعة الجبن قد تركزت فى مدينة بالذات كان يطلق عليها وقتذاك اسم «ربض الجبن» وكانت من أشهر مدن كريت (٣) . ، واشتهرت الجزيرة أيضا بكثرة أشجارها وخاصة أشجار الكروم (٤) وامتازت تربة السهل الساحلى بالخصوبة ، وقد دون الجغرافيون المسلمون هذه الحقيقة فقال الادريسى « وجزيرة اقريطش جزيرة عامرة كثيرة الخصب (٥) » . وأوضح كل من الجغرافى ابن حوقل والمؤرخ القلقشندى نفس هذا المعنى (٦) ، ويضيف القلقشندى الى ذلك قـــوله « واكـــثر مواشيها المعز وليس بها ابل ، ولم يكن بها سبع ولاثعلب ولاغيرهم من الدواب الدابة بالليل ، وكذلك ليس بها حية ، وان دخلت اليها حية ماتت فى عامها ، ويقال ان صناعة الموسيقى أول ما ظهرت بها (٧)» . وبالاضافة إلى خصوبة التربة ، فقد

---

(1) Genesius, Liber 11, p. 47;

كيدرينوس : موجز التاريخ ، ص ٩٢ ، باليونانية .

(٢) النويرى السكندرى : الالمام بما جرت به الاحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية ، مخطوط مصور ، لوحة رقم ١٢٣ أ.

(٣) الادريسى : نزهة المشتاق فى ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر ، تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٧١.

(٥) الادريسى : نفس المصدر ، الجزء الرابع من الاقليم الرابع.

(٦) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، ص ٢٠٣ ، القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٣٧١ .

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٣٧ .

احتوت كذلك على بعض المعادن النفسية وأهم ما يذكر منها معدن الذهب(١)

ووجد سكان كريت – قبل الفتح الاسلامى للجزيرة – فى الأخشاب التى أمدتهم بها الجبال مصدرا لبناء أسطول دائم هيأ لهم الاشتراك فى عمليات نقل التجارة ، والدفاع عن سواحل جزيرتهم . لذلك اشتهرت كريت منذ أقدم العصور بأنها مصدرا عظيما للجند المرتزقة ، الذين كانوا لا يبخلون بخدماتهم على من يدفع الثمن ، كذلك استخدم فريق من أهالى الجزيرة هذا الأسطول فى القيام بعمليات القرصنة ضد سفن التجارة المارة بالبحار المحيطة بكريت ، وأيضا فى الهجوم على لسواحل القريبة وجلب الاسرى والسبايا لبيعهم داخل أسواق جزيرتهم ، وعلى هذا فقد اشتهرت كريت آنذاك بأنها وكراً للقراصنة ، كما كانت من أكبر أسواق الرقيق (٢) .

وإلى جانب تمتع كريت بكل هذه الميزات ، فقد كانت كذلك مهد للحضارة الهلينية ، كما أكتسبت مكانة دينية مرموقة بسبب اعتقاد اليونان بأن فتة اينكتاس Inktas – إلى الجنوب من مدينة الخندق – هى مقبرة الاله زيوس Zeius كبير آلهة اليونان ، لذلك فقد نظر اليها دائما نظرة تبجيل واحترام وكانت مزارا يحج اليه اليونانيون (٣) .

وخلال عصر الامبراطورية الرومانية القديمة ، ضمت كريت إلى أقليم

---

(١) الادريسى : نفس المصدر ، الجزء الرابع من الأقليم الرابع ، النعمان : المجالس والمسايرات ، مخطوط مصور ، الجزء الثانى ، لوحة رقم ٤٢١ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(2) Semple, op. cit., pp. 639-656; Lacroix, op. cit., p. 531.

(3) Encyclopedia Britanica, vol 6, pp. 684, 676, La grande Encyclopedia, tome treizième, p. 339.

سيرن Cyrene (برقة) (١) وكونتا مقاطعة واحدة ، وحكمت حكما ذاتيا عن طريق مجلس شيوخ ، ووجد بها نائبا عن بابا روما . وموظفا أو اثنين لجمع الخراج (٢) . وفى زمن الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ — ٣٣٧ م) ضمت كريت إلى مقاطعة اللبريا Illyria (٣) وحكمت عن طريق قنصل موفد من قبل الامبراطور البيزنطى ، وتحالفت مدنها تحت السيادة البيزنطية(٤) ثم كونت كريت مع غيرها من جزر البحر الايجى تغرا بحريا هاماوبالاضافة إلى الموارد الاقتصادية الهامة ، والموقع الاستراتيجى والجغرافى الذى ميز هذه الجزيرة ، فقد كان لها دورها فى البحرية البيزنطية ، حيث امدت الامبراطورية بأسطول قوى من السفن الحربية والبحارة الأكفاء (٥) . وفى تلك الفترة ساهمت كريت مساهمة فعالة فى الأحداث الجارية فى بيزنطة ، ومن أمثلة ذلك ما حدث فى عام ٦٩٨ م حين استغل بحارة الأسطول الكريتى التطورات السياسية التى حدثت فى داخل الامبراطورية ، وقاموا بالثورة ونادوا بأمير أسطولهم ويدعى ابسيمار Apsimar امبراطورا لبيزنطة ، ولقب باسم طيبريوس الثالث Tiberius III ، وأبحر الامبراطور الجديد بقواته متجها نحو القسطنطينية فلم يجد مقاومة تذكر ، ودخل إلى المدينة واستمر يحكم الامبراطورية لمدة سبع سنوات (٦٩٨ — ٧٠٥ م) (٦) . وفى زمن الامبراطور

---

(١) تقع سيرن على الساحل الليبى المطل على البحر المتوسط إلى الغرب من مدينة الاسكندرية .

(2) La grande Encyclopedia, tome treizième, p. 339.

(٣) تقع اللبريا على الساحل الجنوبى الشرقى للبحر الادرياتيكى .

(4) Eucyclopedia Britannica, vol 6, p. 684: La grande Encyclopedia, tome 13, p. 339,.

(5) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 140.

(6) Constantin Porphgrogenitus, De Administrando Imperio, ch. 57. p. 215.

البيزنطى ليو الثالث الايسورى (٧١٧ – ٧٤١ م) أصبحت كريت ثغرا قائما بذاته ، واستمرت كذلك حتى سقطت فى أيدى المسلمين (١) .

أوضحنا فى هذه المقدمة بإيجاز أهم المميزات الجغرافية لكريت ، حيث ألممنا بالموقع الاستراتيجى للجزيرة ، وشكل السطح وتكويناته ، ومميزات التربة ، ونشاط السكان ، ثم القينا نظرة عاجلة على وضع كريت بالنسبة للدولة الأم سواء فى العصر الرومانى القديم أو فى العصر البيزنطى .

وإن كانت المصادر المعاصرة لمحاولات المسلمين المبكرة غزو الجزيرة لم تذكر شيئا مباشرا عن أسباب هذه المحاولات ، إلا أننا بناء على العرض السابق نستطيع أن نعلل ذلك بما كان لهذه الجزيرة حينذاك من أهمية كبرى من حيث موقعها الجغرافى والاستراتيجى الممتاز ومكانتها الدينية الكبيرة ، ومركزها التجارى المرموق الذى يدر أرباحا طائلة على من يتحكم فيها لذا كانت محاولات المسلمين احتلالها من أشد وسائل مضايقة البيزنطيين وقطع مورد مالى هام عنهم ، فضلا عن أن فتحها كان يعتبر بمثابة ضرورة سياسية وحربية لتأمين الدولة الاسلامية الفتية من مضايقات جيرانها ومناوشاتهم . ولعل كل هذه الميزات قد لفتت نظر المسلمين إلى كريت منذ زمن مبكر ؛ فقاموا بأكثر من محاولة لاحتلال هذه الجزيرة ، وقد وصلتنا أخبار هذه المحاولات من المصادر الاسلامية ، أما المصادر البيزنطية فلم تعرض لها . وقد جرت محاولتان فى عصر الخلافة الأموية ، ويبدو أن اهتمام الامويين بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، جعلهم يتجهون بأنظارهم نحو فتح كريت حتى يمكنهم اتخاذها قاعدة حربية لعملياتهم العسكرية ضدالقسطنطينية وكذلك لاستخدامها فى سد منافذ بحر أيجة فى وجه السفن البيزنطية ومنعها

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 140.

من الوصول إلى بلاد المسلمين . وجرت المحاولة الأولى فى عام ٥٤ هـ (٦٧٤م) فى عهد الخليفة الاموى معاوية بن ابى سفيان (٤١ – ٦١ هـ / ٦٦١ – ٦٨١م) وقام بها القائد أجناده بن ابى أمية الازدى ، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، إذ يقال أن بعض سفن الاسطول الاسلامى ، أغرقها البيزنطيون بمن فيها ، واستولوا على بعض السفن الحربية الأخرى ، أما الباقى فقد أسرع بالفرار (١) . أما المحاولة الثانية فلم تحدد المصادر تاريخها وإنما ذكرت أنها حدثت فى عصر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (شوال ٨٦ – جمادى الآخرة ٩٦/أكتوبر ٧٠٥ – فبراير ٧١٥م) (٢) وقد تمكن المسلمون أثناء هذه المحاولة من فتح بعض أجزاء من كريت ، ثم تروى هذه المصادر أنهم قد انصرفوا عنها بعد ذلك (٣) . ولم تأت بشىء عن تاريخ انصرافهم عنها ، ولا عن الاسباب التى أجبرتهم على ذلك . والباحث المدقق فى تاريخ الخلافة الأموية يرجح أن ذلك تم أثناء عهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (صفر ٩٩ – رجب ١٠ هـ / سبتمبر ٧١٧ – فبراير ٧٢٠ م) (٤) الذى انتهج سياسة مغايرة لسياسة أسلافه من الخلفاء الأمويين القائمة على أساس التوسع فى الفتوحات ، إذ أكتفى هذا الخليفة بما بلغته الدولة الاسلامية من حدود تمتد من تخوم الصين شرقا إلى الأندلس غربا ، ومن بحر آرال شمالا حتى شلالات النيل السفلى جنوبا ، ورأى أن الأمر يتطلب توجيه الجهود إلى تنظيم هذه الامبراطورية الاسلامية

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٤ ، ياقوت ، معهم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ . انظر ايضا ، فازيليف ، العرب والروم ، ص ٥٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ ، جـ ٢ ، ص ١١٩.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ص ٢٤٤ – ٢٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٤) المسعودى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ص ١٣١.

المترامية الأطراف وتأمين رقعتها قبل الاستمرار فى الفتح والتوسع (١) . ولا يستبعد أن يكون قد أمر بالإنسحاب من الأجزاء المفتوحة فى كريت تحقيقا لسياسته هذه وبعد أن تخلى عن الحلم الذى راود الأمويين الأوائل الخاص بفتح مدينة القسطنطينية (٢) .

وتمت المحاولة الثالثة فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد (ربيع الأول ١٧٠ – جمادى الآخرة ١٩٣ هـ / سبتمبر ٧٨٦ – أبريل ٨٠٩ م) الذى أرسل أسطولا لفتح كريت بقيادة قائد أساطيل الخلافة العباسية فى شرقى البحر الأبيض المتوسط حميد بن معيوف الهمذانى ، وقد تمكن من فتح أجزاء من هذه الجزيرة (٣) على أن المصادر الاسلامية تؤكد أن البيزنطيين قد استعادوا هذه الأماكن من جديد (٤) لكنها لم تذكر تاريخ استعادة البيزنطيين لها ، وإن كان المرجح أن ذلك لم يتم أثناء حياة الخليفة هارون الرشيد ، الذى بلغت الدولة الاسلامية فى عهده عنفوان شبابها وقوتها وكانت تلتزم سياسة الهجوم دفاعا عن كيانها ونشرا لدعوتها ، وتأمينا لحدودها ، وقد أحرزت الكثير من الانتصارات على الدولة البيزنطية التى اتخذت جانب الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذى انتابها (٥) والغالب أن البيزنطيين قد استعادوا هذه الأجزاء خلال فترة الفتن والاضطرابات السياسية التى اشتعلت فى مختلف

---

(١) العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٥) بشأن الظروف السياسية التى عرضت للدولة البيزنطية وأدت إلى اضعافها. انظر نفس هذا الفصل ص ٧١ وما بعدها.

أرجاء الامبراطورية العباسية أثر وفاة الخليفة الرشيد ، ونتيجة للصراع الحربى العنيف الذى قام بين ولديه وخليفتيه الأمين والمأمون (١) .

ولكن إذا كانت هذه المحاولات لم يصادفها التوفيق ، فأن المحاولة التالية التى قامت بها فئة من المسلمين ، قد صادفت نجاحا كبيرا ، وأسفرت عن فرض السيادة الاسلامية على جزيرة كريت لفترة امتدت لأكثر من مائة وثلاثين عاما .

وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية على أن الموطن الأصلى لهؤلاء الفاتحين هو الأندلس ، وروى المؤرخون البيزنطيون أمثال جينيزيوس ، وقسطنطين السابع ، وصاحب صلة ثيوفان والماجستر سيمون ، وكيدرينوس أن هؤلاء الفاتحين المسلمين قد هاجروا من وطنهم الأصلى فى شبه جزيرة ايبريا — فى الجنوب الاسبانى — نتيجة للجدب ، الذى أصاب بلادهم ، ونزلوا بكريت مباشرة ، حيث تم لهم فتحها واستيطانها (٢) .

وهكذا يتضح أن هؤلاء المؤرخين البيزنطيين كانوا يجهلون على ما يبدو الأحداث التاريخية التى عرضت لهؤلاء الفاتحين المسلمين فى الفترة السابقة مباشرة لعملية الفتح ، وكان من حسن الحظ أن أمدتنا المصادر العربية بالتفاصيل الدقيقة لتاريخ هذه الفترة .

---

(١) فيما يتعلق بالخلاف بين الأمين والمأمون والنتائج التى ترتبت عليه . أنظر نفس هذا الفصل من البحث ص ٦٥ وما بعدها.

(2) Genesius : op. cit., p. 46; Constantin Porphyrogenetes. De Administrando Imperio, ch. 22, p 104; Theophanes Continuatus : Liber 11, p. 46; Symeon Magistri, p. 758, Zonaras : Epitomae Historiarum, Liber XV, tomus III, pp. 347-348.

وقد اجمع عدد كبير من المؤرخين المسلمين القدامى (١) على أن هؤلاء الفاتحين هم ثوار حى الربض بقرطبة (٢) ، الذين قاموا بثورة عارمة ضد الخليفة الأموى الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م)، الذى ما أن تم له قمع هذه الثورة أمر بطردهم من الأندلس ، فتوجه فريق منهم إلى مدينة الاسكندرية حيث شاركوا فى الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد المصرية آنذاك ، وعلى الأخص مدينة الاسكندرية ، حتى تم طردهم منها ، فنزلوا إلى كريت وافتتحوها . ونظرا لأهمية ثورة حى الربض ، وما ترتب عليها من نتائج خاصة بفتح كريت سنعرض لها عرضا مركزا .

لقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الثورة ، فهناك فريق منهم لا يرى سببا وجيها يدعو الناس للقيام بها ، مثل المؤرخ المغربى ابن عذارى الذى قال : «أن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر ، إذ لم يكن ثم ضرورة من اجحاف فى مال ، ولا انتهاك لحرمة ، ولا تعسف فى ملكة ، والحال تدل على صحة ذلك ، فأنه لم يكن على الناس وظائف ، ولا مغارم ، ولا سخر ولا شىء يكون سببا لخروجهم على السلطان ، بل كان ذلك أشرا ، وبطرا ، وملالا للعافية ، وطبعاً جافيا ، وعقلا غبيا ، وسعيا فى هلاك انفسهم» . (٣)

---

(١) انظر على سبيل المثال : ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ص ٧٦ — ٧٧ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٣ — ٧٤ ، ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٤٥ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، ص ١٦ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج١ ، ص ٣١٨ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٥٣ .

(٢) تقع مدينة قرطبة العاصمة فى الجنوب الغربى من الاندلس ، بغربى نهر أشبيلية ، وهى مدينة حصينة يحوطها سور ضخم من الحجارة به سبعة أبواب ، واشتهرت المدينة بكثرة مساجدها التى بلغت ألف وستمائة مسجد ، انظر القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٢٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ص ٧٥ — ٧٦ .

وثمة فريق آخر من المؤرخين ساق أسبابا عدة دعت سكان حى الربض بقرطبة إلى القيام بثورتهم هذه ، ومن هذا الفريق ، ابن القوطية ، والمقرى ، والمراكشى ، وابن الخطيب ، وابن الاثير ، وغيرهم . فقد كان الشعب القرطبى ناقما على الأمير طغيانه وصرامته وكبريائه ، وتشاغله باللهو والصيد والشراب ، وكان من بين أهل قرطبة كثير من المولدين (أى مسلمى الاسبان) الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص فى مركزهم الاجتماعى وفى حقوقهم العامة ، كما كان الفقهاء من جانبهم يعملون على أذكاء سخط العامة على الأمير الحكم وبلاطه ، وكان السبب الحقيقى وراء تحريضهم ما أصاب نفوذهم من انكماش . ذلك أن الأمير هشام والد الحكم كان قد أحاط نفسه بالفقهاء المالكية ، واستسلم لهم ، فعظم شأنهم وتجاوزوا حدودهم . فلما تولى الحكم الامارة بعد أبيه ، حاول أن ينتزع منهم سلطانهم ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه من نفوذ ، وأن يكف أيديهم عن التدخل فى شئون دولته ، فأنقلبوا عليه ، وسخطوا على تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحى فى اثارة الرعية ، الذين زاد من سخطهم ما فرضه الحكم على المواد الغذائية من ضرائب مرهقة(١) .

وهكذا وجدت هوة عميقة من العداء بين أهل قرطبة وفقهائها وبين الحكم وأصبحت بين الفريقين وحشة أخذت تشتد على مر الأيام ، وكان العامة يجاهرون بذمة ، والخوض فى سيرته ويجتمعون فى المساجد ليلا لتجريحه

---

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٢ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، جـ ١ ، ص ٣١٨ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ١٩ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، ص ١٥ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٥ ، ص ١٧٢ .

والتعريض به ، حتى بلغ بهم الأمر إلى القول «يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك (١)» . وما إلى ذلك من ألفاظ القدح التى تدل على سخطهم واستيائهم وسار الغوغاء ينادونه عند انقضاء آذان الفجر «الصلاة يا مخمور الصلاة» (٢). وكانت النتيجة المتوقعة أن أتفق الفقهاء ووجهاء قرطبة على خلع الحكم ، ووقع اختيارهم على ابن عم له يدعى ابن الشماس لمبايعته بالامارة ، فأظهر الأخير استجابته لهم ، ثم أفشى سرهم ، فأبلغ الأمير الحكم بما اجتمعوا عليه ، وروى تفاصيل المؤامرة وأعطاه بيانا بأسمائهم ، وحين تأكد الأمير من ذلك أمر بالقبض على ستة من أعلام القوم المشاهير المشتركين فى هذه المؤامرة وصلبهم عند مدخل قصره ، فامتلأ جسر قرطبه بمظاهر السخط وبخاصة بعد أن أمر بقتل الثوار (٣) .

وفى هذا الجو المتوتر ، والبركان الذى يوشك أن ينفجر ، وقع حادث بسيط أشعل نيران الفتنة ، فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاما من أفراد الشعب بسبب خلاف شخصى بينهما (٤) . فغلت نفوس الأهالى بالغضب وهرعوا الى السلاح ، وكان أشدهم تحفزا وهياجا أهل الربض الجنوبى من الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماه شقنده ، وكان هذا الربض مسكن العمال وأهل الأسواق . وزحفت جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية وتأهب الحكم فى حرسه وغلمانه لردها ، ووقع القتال بين الطائفتين يـــوم

---

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ، ٥ ص ١٧٢ .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٢–٧٣ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٢ ، لوحة ١٥ (مخطوط مصور) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

الأربعاء ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م (١) فكانت الغلبة لأهل الربض ، وأحاطوا بالقصر ، فأرسل الأمير الحكم ابن عم له يدعى عبيد الله البلنسى ، ومعه الحاجب عبد الكريم ، فى قوة من الفرسان والمشاه ، وأتوا أهل الربض من وراء ظهورهم ، فأضرموا النيران فى الربض ، ونجحت هذه الوسيلة فى تفريق شمل الثوار ، إذ ما كادت النار تعلو حتى هرع الكثيرون منهم الى دورهم يحاولون اخمادها وإنقاذ نسائهم وأطفالهم . وعندئذ التف الجند حول الثوار من كل ناحية ، وأعملوا فيهم القتل حتى أفنوا عددا كبيرا منهم،

---

(١) هناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ هذه الثورة ، فبعضهم وبخاصة المشارقة مثل المقريزى وابى المحاسن وابن الاثير قد ذكروا وقوعها فى رمضان عام ١٩٨ هـ / مايو ٨١٤ م ، بينما ذكر المؤرخون المغاربة مثل ابن الابار وابن عذارى وابن سعيد ، تاريخا محددا لهذه الثورة هو يوم الاربعاء ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م . وتبعا لذلك اختلف المؤرخون المحدثون ، فبعضهم مثل دوزى أيد تاريخ رمضان ١٩٨ هـ ، على حين أخذ البعض الآخر بتاريخ رمضان ٢٠٢ هـ ، ومن هذا الفريق ليفى بروفنسال والأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم .

ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية الاندلسية التى تؤكد وقوع ثورة الربض فى رمضان عام ٢٠٢ هـ / مارس ٨١٨ م وذلك لقدمها واتفاقها وكونها اقرب إلى ميدان الحوادث واقرب إلى التحقيق ، فضلا عن أنها أكثر تمشيا مع التسلسل الزمنى لأحداث هذه الفترة من الزمن . انظر عن ذلك المصادر والمراجع التالية :

المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ ،

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ١٥٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ، ص ١٧٢ ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٧٥ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ، ص ٤٢ .

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, tome I, p. 296; La Revue de Byzantione, tome 8, pp. 1-20.

سعد زغلول عبد الحميد : الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، ص ٢٦٧ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ١٣٢ .

وأسروا خلقا جما(١) ، صلب منهم الحكم تجاه قصره على شاطىء النهر نحو ثلاثمائة «لم ير فيما سلف ممثلون أكثر منهم عددا ، ولا أهول منظرا» وذلك على حد تعبير المؤرخ ابن الابار (٢) .

وقد استمر القتل والنهب لمنازلهم ، كما استمرت مطاردتهم ثلاثة أيام ، ثم أمر الأمير الحكم بهدم الربض مصدر الفتنة ، فتم مسحه مسحا «فلم يعمر ، لا اختطت فيه دار الى آخر دولتهم» (٣) . ثم نودى بالأمان ، وأمر الثوار بالرحيل عن قرطبة وأنه لا أمان لمن تخلف منهم ، فتفرقوا فى الثغور والكور ، واستقرت جماعة منهم بطليطلة التى كانت تجاهد وقتذاك جهادا حارا من أجل الاستقلال واتجهت جماعة منهم الى فاس ، وأخرى الى الاسكندرية حيث شاركوا فى الاحداث التى وقعت بها آنذاك والتى انتهت بخروجهم منها الى جزيرة كريت فتم لهم فتحها واستيطانها (٤) .

كان هذا هو الرأى السائد بين غالبية المؤرخين ، وهو أن فاتحى كريت هم ثوار حى الربض بقرطبة . ولكن الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أثبت أن الأندلسيين لذين نزلوا بالاسكندرية ، ثم رحلوا منها إلى كريت ، ليسوا هم ثوار حى الربض . فقد وضح أن ثورة الربض وقعت فى عام ٢٠٢هـ

---

(١) الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ، ص ١١ ، ابن الاثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٤ .

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٣ – ٧٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ، ص ٧٦ – ٧٧ ، ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، المقريزى : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٣١٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٦ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٨١٨ م) بينما نجد أن الأندلسيين فاتحى كريت قد شاركوا فى الأحداث التى وقعت بالاسكندرية فى عام ١٩٩ هـ (٨١٤ – ٨١٥ م) . ويرى الاستاذالدكتور سعد زغلول أن هؤلاء الأندلسيين من الغزاة البحريين (١) ، وذلك استنادا إلى ما ذكره المؤرخ المصرى الكندى ، الذى قال أنهم كانوا «قد قفلوا من غزوهم ، فنزلوا الاسكندرية ليبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان (٢)» . ويفهم من ذلك أنهم غزاة بحريون وأن الغزو كان صناعتهم .

والواقع أن هذا الأمر ليس بغريب ، فقد تفوق العرب بالأندلس تفوقا عظيما فى فن البحر ، وذلك بسبب طبيعة بلادهم ، فهى بمثابة جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، وكانت الصلة الوحيدة بينها وبين باقى الأقطار الاسلامية تتم عن طريق السفر بالمراكب فى البحر . وقد امتاز سكان موانىء الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى من الأندلس مثل مالقة والمريه ومرسيه وبلنسيه وبرشلونة ، بالمهارة البحرية ، واتخذت جماعات كبيرة منهم مراكز ساحلية فى شرق الأندلس تمتد ما بين طرطوشة وبلنسية ، وكانوا يقومون منها بغارات على السواحل المجاورة (٣) . وكان من الطبيعى أن يوسعوا مجال غزواتهم البحرية هذه إلى شرقى البحر المتوسط خاصة وأن سواحله أصبحت كلها اسلامية يمكنهم الالتجاء إليها اذا ما دعت الضرورة الى ذلك ، ويفهم من نص أورده المؤرخ المسيحى المعاصر ساويرس ابن المقفع أنهم اتخذوا من الاسكندرية قاعدة لعملياتهم فى شرقى البحر المتوسط ، إذ قال : «دخل

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية منذ الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، ص٢٦٧ .

(٢) الكندى ، ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ٢٢٩ .

الاسكندرية قوم ومعهم شيء كثير من جزاير الروم يسموا الاندلسين وأقاموا على هذه القضية بمصر إلى جزاير الروم ، ينهبوا ويجيبوا السبي إلى الاسكندرية ويبيعوهم كالعبيد (١)» .

ونحن نأخذ برأى الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، من أن الاندلسيين الذين نزلوا إلى الاسكندرية عام ١٩٩ هـ (٨١٤ — ٨١٥ م) ، وشاركوا فى احداثها ، هم من الغزاة البحريين وليسوا من ثوار حى الربض بقرطبة ، ولكننا لا نستطيع فى نفس الوقت أغفال ما ردده المؤرخون المغاربة القدامى أنفسهم الذين حددوا تاريخ ثورة الربض بعام ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) من أن جماعة من الربضيين قد نزلوا بالاسكندرية بعد اخماد ثورتهم ، وشاركوا فى الاحداث الجارية بها ثم طردوا منها إلى كريت حيث تم لهم فتحها (٢) . وفى رأينا أن فريقا من هؤلاء الربضيين نزلوا فعلا بالاسكندرية بعد اخماد ثورتهم فى ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) وربما كان الدافع لهم على ذلك سقوط تلك المدينة فى أيدى أخوانهم الأندلسيين من الغزاة البحريين ، الذين سبقوهم اليها فى عام ١٩٩ هـ (٨١٤ — ٨١٥ م) إذ أن الثابت فى المصادر أن هؤلاء الغزاة البحريين قد تمكنوا من السيطرة على الأمور بالاسكندرية والاستقلال بها فى ذى الحجة ٣٠٠ هـ (يوليو ٨١٦ م) ، وحتى ربيع الأول ٢١٢ هـ (يونيو ٨٢٧ م) (٣) . وهكذا أصبح من اليسير على هؤلاء الربضيين أن ينزلوا بالاسكندرية وينضموا إلى اخوانهم ويشاركوا معهم فى الأحداث التى مرت

---

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الابار : الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ٤٢ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٦ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٨ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ص ٢٧٥ - ٢٧٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

بها المدينة آنذاك . وعلى هذا يمكن القول أن الأندلسيين فاتحى كريت كانوا خليطا من الغزاة البحريين الأندلسيين وثوار حى الربض بقرطبة . وسنعرض فيما يلى للأحداث التى وقعت بالاسكندرية منذ عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م وكيفية مشاركة الأندلسيين فيها حتى رحيلهم إلى كريت وفتحهم لها ، ضمانا لتسلسل الأحداث وترابطها .

فى شتاء عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م عاد الأندلسيون من أحدى غزواتهم البحرية ورسوا بمراكبهم على شاطىء الاسكندرية (١) إنتظارا لأنتهاء موسم الشتاء ثم يعاودون استئناف نشاطهم البحرى من جديد ، ويذكر بعض المؤرخين أن عددهم كان خمسة عشر ألفا (٢) . وذكر البعض الآخر أنهم كانوا حوالى عشرة آلاف (٣) ، أما اليعقوبى فقد حدد عددهم بأربعة آلاف رجل (٤) . ويذكر الكندى أنهم أتوا فى أربعين مركبا (٥) ، ويقول الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد «أنه لو قدرنا أن متوسط شحنة المركب من الرجال بلغت حوالى المائة أو أكثر قليلا لبلغ عددهم حوالى أربعة أو خمسة آلاف رجل» (٦) . ويؤيده فى ذلك الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم (٧) . وبذلك يكون ما ذكره اليعقوبى أقرب إلى الصحة والصواب .

---

(١) ذكر المقريزى أنهم كانوا يرسون بالذات فى منطقة الرمل ، انظر ، المقريزى ، الخطط جـ ١ ، ص ٢٧٨ .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ٢٧٨ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ، ص ٤٤٦ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٦) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية ، ص ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٧) عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ١٣٤ .

ويروى الكندى أن أمراء مصر كانوا لا يسمحون لهؤلاء الغزاة من الاندلسيين بدخول المدينة ، وإنما كان الناس يخرجون اليهم للمتاجرة: وكانت الأمراء لا تمكنهم من دخول الاسكندرية ، إنما كان الناس يخرجون اليهم فيبايعونهم» (١) . ولكن حالة الفوضى والاضطراب التى كانت تعانى منها الاسكندرية فى ذلك الوقت ، دفعت الاندلسيين إلى التدخل فى شئونها هذه المرة ، ومحاولة فرض سيطرتهم عليها ، والواقع أن هذه الفوضى التى تعرضت لها مدينة الاسكندرية كانت صدى وانعكاسا لأحوال مصر كلها ، وكانت مصر قد عرفت الاضطرابات والثورات المحلية منذ أيام الخلافة الأموية (٤١ـ ١٣٢ هـ / ٦٦١ ـ ٧٥٠ م) (٢) وكانت هذه الثورات تأتى من جانب القبط دافعى الضرائب ، فأنزل عامل خراج مصر فى عصر الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (شوال ١٠٥ ـ ربيع ثانى ١٢٥ هـ / مارس ٧٢٣ فبراير ٧٤٣م) ويدعى عبيد الله بن الحبحاب ، بيوتا من قيس وقبائل اليمانية فى الحوف الشرقى (مديرية الشرقية حاليا) فى عام ١٠٩ هـ (٨٢٧ ـ ٨٢٨ م) وأمرهم بالاشتغال بالزراعة حتى يحلوا تدريجيا محل قبط الحوف الدائمى الثورات (٣) . ولكن رغم ذلك فلم يحل الهدوء بهذا الموضع ، وظل مصدرا للاضطرابات ، حتى جاء الخلاف بين الأمين والمأمون فأضاف أسبابا جديدة لعدم الاستقرار . وكان هذا الخلاف بسبب نظام ولاية العهد ، إذ كان الخليفة العباسى هارون الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لولديه الأمين والمأمون ، على أن يلى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ، ويتقلد المأمون حكم البلاد الواقعة من همذان

---

(١) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ ٢ ، ص ٤٢ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٤٣ ، انظر أيضا ، كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

إلى المشرق ، وألا يكون للأمين سلطان على أخيه (١) . لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة فى ٨٠٩ م (١٩٣ هـ) ميله إلى الاستئثار بملك العباسيين جميعه وعدم رغبته فى تنفيذ عهد الرشيد ، فخلع أخيه المأمون من ولاية العهد وبايع لأبنه موسى ، ولهذا قامت الحرب بين الأمين والمأمون (٢) وكانت فترة النزاع بينهما عهد توتر وقلق فى جميع أنحاء الدولة العباسية ، وقد عمت الفوضى مصر أيضا ، فتحزب فريق من أهاليها للأمين ، وتحزب فريق آخر للمأمون ، ولم ينته هذا الاضطراب بمقتل الأمين وانفراد المأمون بالخلافة ، بل تطور الأمر فى مصر إلى صراع بين بعض القادة للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة العباسية (٣) .

ويرسم المؤرخ المسيحى المعاصر ساويرس بن المقفع صورة مصغرة ولكنها شاملة للاضطراب السائد فى مصر آنذاك فيقول (٤) : «واستطال البوار على مصر وجميع أعمالها ، بحكم اضطراب مملكة بغداد ، وخرجوا الخوارج على المملكة بمصر ، وجبوا الخراج لنفوسهم ، وكان من جملتهم رجل يسمى عبد العزيز الجروى ، أخذ من شطنوف إلى الفرما ، وشرقية مصر بلبيس

---

(١) انظر التفاصيل فى المصدرين التاليين :
الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ص ٥٣ ، ٦٩ — ٧٠ ، ٧٣
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ص ٨١ ، ١٠٥ — ١٠٦ ، ١٠٩—١١٠

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ١٢٤ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٣) بشأن تفاصيل الصراع فى مصر أثناء النزاع بين الأمين والمأمون انظر ، الطبرى ، نفس المصدر جـ ١٠ مواضع متفرقة من الكتاب ، الكندى : ولاة مصر ، ص ص ١٧٢ — ٢٠٥ ، راجع كذلك ، كاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، ص ص ١٥٩ — ١٦٦ .

(٤) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٨ .

وأعمالها ورجل اسمه السرى بن الحكم (١) ، أخذ من مصر إلى أسوان ، واستولوا (استولى) على الخراج . وقوم يسموا لخم وجذام ، قبيلتين أخذوا غربى مصر وأعمال الاسكندرية ومريوط وملكوا البحيرة جميعها . وكانت هذه (هاتين) القبيلتين فى أكثر الأوقات متحاربين (متحاربتين) وينهب بعضهم بعضا وكان على البلاد منها بلاء عظيم» .

ولما تولى أمور مصر المطلب بن عبد الله الخزاعى (٢) من قبل المأمون فى سنة ١٩٨ هـ (أول سبتمبر ٨١٣ — ٢١ أغسطس ٨١٤ م) ، أراد أن يضبط الاسكندرية عن طريق اسناد ولايتها إلى رجل حازم له من الحسب والنسب ما يجعل المنشقين من أهلها يخضعون لسلطته ، فعهد بأمرها إلى واحد من أسرة معاوية بن حديج (٣) ، وهو حديج بن عبد الواحد ، لكن قبائل بنى مدلج بالاسكندرية ثارت ، ولما سير اليهم الوالى أخاه هارون أنزلوا به الهزيمة (٤) .

---

(١) هو السرى بن الحكم بن يوسف بن المقوم ، مولى من بنى ضبه ، وأصله من مدينة بلخ . ويذكر المؤرخ ابن تغرى بردى أن السرى من قوم يقال لهم الزط وقيل أنهم جنس من السودان أو الهنود . وقد ولى امارة مصر بأجماع الجند والأهالى فى مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ / ابريل ٨١٦ م . انظر عن ذلك : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) هو المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعى ، وكان بمدينة مكة المكرمة حين عينه المأمون واليا على مصر ، التى قدم إليها فى النصف الثانى من شهر ربيع الاول سنة ١٩٨ هـ / نوفمبر ٨١٣ م . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣) يعتبر معاوية بن حديج من الشخصيات الاسلامية البارزة التى ناصرت معاوية بن ابى سفيان ، فى اثناء النضال الذى تلا مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وقد كافأه الخليفة معاوية بن ابى سفيان بأن عهد إليه بفتح شمال افريقية وتولى امارة مايفتحه من هذه البلاد ، وخرج لتنفيذ عملية الفتح فى عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ — ٦٦٦ م ، ونجح فى فتح بعض البلاد هناك ثم عاد إلى مصر فى أوائل عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م . أنظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ١٩٣ (طبعة ليدن ١٩٢٠) ، ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١١ .
كيدرينوس : جـ ٢ ، ص ١٨٠ . باليونانية .

(٤) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٧٩.

وحين ولى المطلب بن عبد الله الخزاعى ولايته الثانية على مصر بأجناد الجند سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) (١) ، سند الولاية على الاسكندرية إلى شخص يدعى محمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج ، الذى استخلف عليها عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، ويعرف باسم عمر بن ملال (٢) . فوليها لمدة ثلاثة أشهر ، ثم عزله المطلب وولى عنيها أخاه الفضل بن عبد الله بن مالك (٣) . وكان ذلك سببا فى حقد عمر بن ملال على المطلب فعقد الأول تحالفا مع عبد العزيز الجروى (٤) ، الذى حرض عمر على الوثوب على الاسكندرية واخراج الفضل منها ، والدعاء للجروى بها (٥) .

وقد وجد عمر بن ملال أنه لا يستطيع القيام بهذا العمل وحده ، ورأى أن يستعين فى تنفيذه بالاندلسيين الذين كانوا يرسون بمراكبهم فى مياه الاسكندرية انتظارا لانهاء موسم الشتاء ، فدعاهم لمساعدته ، فلبوا الدعوة ، وعن طريق مساعدتهم نجح فى اخراج الفضل من الاسكندرية ودعا فيها لعبد العزيز الجروى . غير أن أهالى الاسكندرية ساءهم تدخل الاندلسيين فى شئون مدينتهم

---

(١) كان الخليفة المأمون قد عزله عن ولاية مصر ، ولكن جند الفسطاط أعادوه إلى الولاية. انظر ، الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .
هذا ويذكره المقريزى باسم عمر بن ملاك ، انظر ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ . بينما يذكره ساويرس بن المقفع باسم عمر بن مالك ، انظر ، سير الآباء البطاركة ص ٢٤٩ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ .

(٤) كان عبد العزيز الجروى وقتذاك متغلبا على ثغر تنيس المتاخم لدمياط ، وكان يطمع فى ولاية الفسطاط والاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية ، وقد نجح فى هزيمة جند الوالى المطلب بن عبد الله فى معركة نيلية عند شطنوف وأسر قائده السرى بن الحكم وأعتقله . انظر عن ذلك ، الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ . راجع أيضا ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية ص ٢٦٩ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط ، ص ٢٧٨ .

فثاروا واشتبكوا معهم فى معركة انتهت بهزيمة الاندلسيين وانسحابهم إلى مراكبهم بعد أن قتل السكندريين منهم بعض الافراد ، وأعادوا الفضل إلى منصبه . (١)

لكن المطلب سرعان ما عزل أخاه الفضل ، واسند ولاية الاسكندرية إلى اسحق بن ابرهه بن الصباح ، فتحركت أطماع ابن ملال من جديد ، وخرج لمقاتلته فى شهر رمضان ١٩٩ هـ / مايو ٨١٥ م ، وتجنبا للقتال . عزل المطلب اسحق بن ابرهه ، وولى على الاسكندرية ابى بكر بن جناده بن عيسى المعافرى.

والواقع أن هذه الأحوال القلقة ، كانت صدى للأحوال المضطربة للعاصمة الفسطاط ، وقد تم التحالف بين الجروى المتغلب على تنيس، والسرى بن الحكم الذى كان معتقلا عنده ، ضد والى الفسطاط المطلب بن عبد الله الخزاعى ، ونجح السرى فى اجتذاب الجند إلى صفه ، وانتهى الأمر بخروج المطلب من مصر إلى الحجاز ، وأصبح السرى واليا للفسطاط بأجماع الجند ، وذلك فى رمضان ٢٠٠ هـ / أبريل ٨١٦ م ، أما عبد العزيز الجروى فظل متغلبا على تنيس (٣) . وعندئذ وجد ابن ملال أن الظروف مواتية للتغلب على الاسكندرية من جديد ، فهاجم واليها ابا بكر بن جناده المعافرى ، وأخرجه منها ، ودعا للجروى بها ، وبذلك تهيأ للاندلسيين المجال للنزول بأرض الاسكندرية ، والاقامة فى برها بعد أن تولى مقاليد الأمور فيها حليفهم ابن ملال (٤) . لكن الاندلسيين بحكم طبيعتهم الجافية كرجال بحر وغزاة احتكوا

---

(١) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٢٧٩ .
(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٣ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ، ص ٢٧٩ .
(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٦ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .
(٤) الكندى : ولاة مصر ؛ ص ١٨٦ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ .

بأهـــل الاسكندرية وأفسدوا فيها ، وكان ابن مـــلال يسعى إلى التقرب للسكندريين وارضائهم بغية الابقاء على ولايته عليهم ، فأمر بإخراج الاندلسيين وردهم إلى مراكبهم ، ولم يتقبل الاندلسيون هذا الاجراء منه ، فأسروها له ، وتربصوا به انتظارا لفرصة مواتية يتاح لهم فيها الانتقام منه (١) .

وفى ذلك الوقت من عام ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) ظهرت بالاسكندرية طائفة الصوفية (٢) التى يأمر أصحابها «بالمعروف — فيما زعموا — ويعارضون السلطان فى أمره (٣)» . وكان زعيم هذه الطائفة يدعى ابو عبد الرحمن الصوفى ، وقد حدثت بعض العداوات الشخصية بينه وبين عمر بن ملال وهكذا جمع الحقد على والى الاسكندرية بين زعيم الصوفية والأندلسيين فى آن واحد ، وصاروا يدا واحدة ، كما نجحوا فى ضم قبيلة لخم اليهم «وكانت لخم أعز من فى الاسكندرية» (٤) . وكان لافرادها اطماعهم فيها ، وقد سبق لهم أن تغلبوا عليها فى عام ١٩٦ هـ(٨١١—٨١٢م)بقيادة زعيمهم بهلول اللخمى(٥)

وقد بلغت اعداد المتحالفين نحو عشرة آلاف رجل وساروا يريدون ابن ملال ، وحاصروا قصره فى ذى القعدة ٢٠٠ هـ / يوليو ٨١٦ م فخشى أن يقتحموا عليه القصر عنوة ، فتملكته روح الشجاعة والتضحية ، فأغتسل وتحنط وتكفن وأمر أهله أن يدلوه إلى الثائرين ، وكان من الممكن أن يثير

---

(١) الكندى : نفس المصدر ، ص ٥٨٦ المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٢) يذكر المؤرخ متزان أول ظهور الطوائف الصوفية كان فى مصر مهد الرهبنة المسيحية ، وقد ظهرت هذه الطوائف لأول مرة فى عام ٢٠٠ هـ/ ٨١٦ م ، انظر ، متز : الحضارة الاسلامية ، حـ ٢ ، ص ١٤ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٦ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

(٤) الكندى ، نفس المصدر ، ص ١٨٧ ، المقريزى : نفس المصدر ، ص ٢٧٩ .

(٥) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٧٩ .

هذا المنظر الشفقة فى قلوبهم ، ولكن على العكس من ذلك ، فلم يكد يقترب من الارض حتى تلقفته سيوفهم ، ولم يهدأوا ويرفعوا الحصار عن القصر إلا بعد أن فتكوا بأربعة رجال من كبار عائلته (١) .

ولكن الحلف بين الاندلسيين واللخميين لم يدم طويلا ، فسرعان ما نشب الخلاف بينهم وتطور إلى حرب سافرة ، وجرت معركة بينها انتهت بهزيمة اللخميين وانتصار الاندلسيين ، الذين استولوا على الاسكندرية عنوة فى ذى الحجة ٢٠٠ هـ / يوليو ٨١٦ م . وقد أظهروا عدم رغبتهم فى حكمها فأوكلوا هذه المهمة إلى زعيم الصوفية ابى عبد الرحمن الصوفى (٢) . الذى لم يكن لديه أى إلمام بأمور الحكم فعم الفساد أرجاء المدينة ، كما تعرض الأهالى بها للنهب والسلب . فعزله الاندلسيون واسندوا ولايتها إلى زعيمهم ابى حفص عمر بن عيسى (٣) . ولم يرض بنو مدلج — المقيمون حول الاسكندرية — بتفرد الاندلسيين بأمور المدينة فأشتبكوا معهم فى القتال . ولما رأى أهل الاسكندرية ما حدث بين الفريقين ، ثاروا وقتلوا من الاندلسيين نحو ثمانين

---

(١) الكندى : ولاة مصر ، ص ص ١٨٧ — ١٨٨ ، المقريزى ، الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ ، ساويرس بن المقفع سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٩ .

(٢) الكندى : ولاة مصر ، ص ١٨٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٧٩ ، ساويرس بن المقفع ، نفس المصدر ، ص ٢٤٩ .

(٣) هو أحد زعماء ثورة الربض ، وقد قاد الربضيين الذين طاردهم الأمير الأموى الحكم إلى الاسكندرية ، ثم تادهم إلى كريت حيث تم لهم فتحها ، وبعدها لقب بالاقريطشى نسبة إلى اقريطش (كريت) . وقد تولى ابو حفص حكم الجزيرة ، فكان بذلك أول حاكم لأمارة كريت الاسلامية . انظر ، البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٥ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ١٨٠ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٢٥٣ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ (طبعة بيروت) راجع كذلك :

The Encyclopedia of Islam, vol I, London 1913, p. 87.

نفسا ، وحين علم الاندلسيون بذلك – بعد انتصارهم على اللخميين – امتلأوا غيظا « كالأسد الضارية لشجاعتهم ، فجردوا سيوفهم ، وخرجوا فى المدينة مغضبين وقتلوا من لقيوه من أهل البلد من المسلمين والنصارى واليهود ، وأى موضع وجدوا فيه أحد من اصحابهم المقتولين أحرقوه بالنار (١)» وأصبح الاندلسيون هم سادة الاسكندرية .

وحين علم الجروى بما حدث لخليفه ابن ملال وما فعـــله الاندلسيون بالاسكندرية خرج لحصارهم بها ، وقد استمر الصراع قائما بين الطرفين حتى وفاة الجروى فى صفر ٢٠٥ هـ / يوليو ٨٢٠ م ، وبذلك تخلص الاندلسيون من مضايقاته لهم ، وظلوا متغلبين على الاسكندرية . وفى تلك الاثناء كان الخليفة المأمون قد نجح فى اقرار الأمور فى المشرق ، ثم وجه جهوده للقضاء على الاضطراب المتفشى فى مصر ، فأرسل إليه قائده عبد الله بن طاهر (٢) الذى تمكن من السيطرة عليها فى عام ٢١١ هـ (٨٢٦ – ٨٢٧ م) (٣) . وكان من الطبيعى أن يوجه عبد الله بن طاهر جهوده بعد ذلك لتخليص الاسكندرية

---

(١) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطاركة ، ص ص ٢٤٩ – ٢٥٠ ، الكندى : ولاة مصر ص ١٨٨ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٢) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، ولد سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م وتأدب فى صغره وقرأ العلم والفقه ، وكان بارع الأدب ، حسن الشعر . كان أميرا على خراسان وأعمال المشرق ، ثم ولاه الخليفة المأمون ولاية مصر على الصلاة والخراج معا بعد عزل عبيد الله بن السرى ، ودخل ابن طاهر مصر فى شهر ربيع الأول ٢١١ هـ / يونيو ٨٢٦ م ، ثم صرفه المأمون عن ولاية مصر فى عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ – ٨٢٩ م وولاها لأخيه المعتصم محمد بن محمد بن هارون الرشيد ، انظر ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة جـ ٢ ، ص ص ١٩١ – ١٩٢ ، ص ٢٠٤ .

(٣) الكندى : ولاة مصر ، ص ص ١٨٩ – ١٩٦ ، اليعقوبى : التاريخ جـ ٢ ، ٤٦٠ – ٤٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ص ١٩١ – ١٩٢ ، المقريزى الخطط ، جـ ١ ، ص ص ٢٧٩ – ٢٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢١٠ .

من تغلب الاندلسيين عليها ، فوجه إليها قواته فى مستهل شهر صفر ٢١٢هـ/ مايو ٨٢٧ م ، ثم لحق بهم فى ربيع الأول ٢١٢ هـ / يونيو ٨٢٧ م ، وفرض الحصار عليها لمدة أسبوعين ، فطلب الاندلسيون الصلح ، وأجابهم اليـه ، بشروط هى ، أن يخرجوا من الاسكندرية إلى حيث أرادوا على ألا ينزلوا بلدا تابعا للخلافة العباسية ، وألا يصحبوا معهم فى مراكبهم أحدا من المصريين ولا عبدا ، ولا أحدا من الأشخاص المطلوبين ، فأن أخلوا بواحد من هذه الشروط حلت له دماؤهم ونكث عهدهم . ورغم اخلالهم ببعض هذه الشروط إلا أنه عفا عنهم وتركهم يغادرون الاسكندرية ، فرحلوا عنها فى النصف الثانى من ربيع الأول ٢١٢ هـ / النصف الثانى من يونيو ٨٢٧ م . (١)

الفتح الاسلامى لكريت :

بعد أن رحل الاندلسيون عن مدينة الاسكندرية ، توجهوا إلى جزيرة كريت – التابعة للدولة البيزنطية – ونزلوا بها . والواقع أن هذا الاختيار لم يكن وليد الصدفة ، إذ كانوا على معرفة سابقة بتلك الجزيرة وغيرها من الجزر اليونانية الأخرى التى طالما تعرضت لغاراتهم ، وكانت آخر غارة قاموا بها على جزيرة كريت فى عام ٨٢٦ م / ٢١١ هـ حين أرسل الاندلسيون من الاسكندرية عدة سفن اغارت عليها ، وعادت محملة بكثير من الأسرى والغنائم بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة . (٢)

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١ ، ص ٢٧٥ – ٢٧٦ ، اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ، ص ٤٦١ ، ساويرس بن المقفع ، سير الآباء البطاركة ص ٢٦٥ ، المقرى : نفح الطيب جـ ١ ، ص ٣١٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ ، ابن خلدون العبر ، جـ ٣ ص ٢٥٣ ، المقريزى : الخطط ، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

(٢) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، ص ٢٤٩ . انظر كذلك المرجعين التاليين : فازيلييف : العرب والروم ، ص ٥٥ ، العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ص ١٠٧ .

وأول ما يصادف الباحث فى هذا الموضوع ، هو مشكلة تحديد تاريخ الفتح الاسلامى لكريت ، فأن غالبية المصادر البيزنطية (١) لم تحدد تاريخا معينا تم فيه هذا الفتح ، وانما ذكرت أنه تم أثناء انشغال الامبراطور ميخائيل الثانى بالقضاء على ثورة توماس الصقلبى (٢) . والمعروف أن هذه الثورة استغرقت الفترة الواقعة بين عام ٨٢١ م وحتى عام ٨٢٣ م / ٢٠٥ ــ ٢٠٨ هـ . واستنادا إلى هذه المصادر فأن الفتح الاسلامى لكريت يقع فى وقت ما خلال السنوات السالفة الذكر . أما المؤرخ البيزنطى جينيزيوس (٣) فقد ذكر أن هذا الفتح تم فى السنة التى انتهى فيها عصيان توماس ، أى فى عام ٨٢٣ م / ٢٠٨ هـ . وتبعا لهذا الاختلاف فى المصادر البيزنطية ، اختلف أيضا المؤرخون المحدثون فأن بعضهم مثل المؤرخ الانجليزى فنلاى Finlay ، والمؤرخ الايطالى اماري Amari ، سلموا بما رواه جينيزيوس ، وبالتالى جعلوا تاريخ الفتح الاسلامى لكريت فى عام ٨٢٣ م (٤) . أما المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه Schlumberger ، فقد حدد تاريخ الفتح بعام ٨٢٤ م/ ٢٠٩هـ (٥).على حين

---

(١) انظر على سبيل المثال المصادر التالية :

Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum, p. 787; Constantin Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, ch. 22, p. 104; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 73-74; Symeon Magistri, Annales, p. 758; Zonaras, Epitomae Historearum, Liber XV, pp. 347-348.

(٢) انظر تفاصيل هذه الثورة ونتائجها فى نفس هذا الفصل من البحث ص ص ٧٤–٩١.

(3) Genesius, Basileiai, p. 46.

(4) Finlay, History of Greece, vol 11, p 135; Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol I, p. 163.

(5) Schlumberger, Recits de Byzance et des Croisades, p. 13.

ذكر المؤرخان الفرنسيان ديل ومارسيه Deihl et Marcais ، أن الفتح الاسلامى لكريت تم فى عام ٨٢٥ م / ٢١٠ هـ (١) .

على أننا نميل إلى الأخذ بما جاء فى المصادر العربية التى حددت تاريخ الفتح الاسلامى لكريت بشهر ربيع الأول عام ٢١٢ هـ / يونيه ٨٢٧ م . (٢) حيث أن هذه المصادر قد تتبعت أخبار الاندلسيين بدقة خلال الفترة الزمنية التى قضوها بالاسكندرية حتى خروجهم منها إلى كريت — وهى المعلومات التى أغفلها المؤرخون البيزنطيون أغفالا تاما ولم يشيروا اليها بكلمة واحدة — كما أن بعض هؤلاء المؤرخين المسلمين أمثال الطبرى ، كان معاصرا لهذه الاحداث ، ومن ثمة فأن التاريخ الذى حدده أقرب إلى التحقيق .

وتذكر المصادر البيزنطية أن الاندلسيين قدموا إلى كريت تحت قيادة زعيمهم الذى أطلقت عليه هذه المصادر اسم ابو خبص (Apochaps) ؛ وهو ابو حفص عمر بن عيسى (٣) ، ونزلوا على الشاطىء الشمالى للجزيرة عند موضع ذكره كيدرينوس باسم «خراكس» (٤) ، وتذكر هذه المصادر ، أنه ما كاد الفاتحون المسلمون يبتعدون قليلا عن الشاطىء حتى أمر ابوحفص باحراق السفن التى نقلتهم إلى كريت ، وقد غضب الاندلسيون لذلك أشد

---

(1) Diehl et Marcais, Le monde oriental de 395 à 1081, Paris 1944, p. 310.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، اليعقوبى : التاريخ ، جـ ٢ ص ٤٦١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ، ص ١٩٢ ، ابن خلدون : العبر جـ ٣ ، ص ٢٥٣ .

(٣) انظر ص ٦٢ من هذا الفصل حاشية رقم (٣).

(٤) انظر كتاب كيدرينوس المسمى «موجز التاريخ» وهو باليونانية ، ص ٩٢ .

الغضب ، وتملكهم الخوف على نسائهم وأطفالهم ، فهدأهم ابو حفص وامتدح لهم غنى الجزيرة وجمال الكريتيات وصلا حيتهن للزواج (١) .

ويفهم من هذه الرواية حرص هذا القائد على اجبار أتباعه على الاستقرار فى الجزيرة والاستماتة فى فتحها والدفاع عنها ، غير أنه من الصعب التسليم بها ، خاصة وأن عددا غير قليل من هؤلاء الفاتحين من الغزاة البحريين ، الذين لا يستطيعون بحال من الأحوال الاستغناء عن مراكبهم ، كما أنه كان أمامهم مهمة عسيرة تتعلق بمواصلة فتح باقى الجزيرة ، وكذلك غزو الجزر المجاورة لضمان أمنهم فى مقرهم الجديد . ويبدو أن هذه الرواية قد لعب فيها الخيال دورا كبيرا ، والارجح هو ما ذكره المؤرخ الايطالى أمارى ، من أن ما أمر القائد المسلم باحراقه كان السفن غير الصالحة للاستعمال فقط وليست جميع السفن (٢) ، ومن هنا التبس الأمر على المؤرخين البيزنطيين .

ويفهم من نص أورده المؤرخ البلاذرى أن الاندلسيين افتتحوا حصنا واحدا فى بادىء الأمر (٣) ، ويبدو أنهم كانوا يخشون من قيام أهالى الجزيرة بمحاربتهم فى ذلك الحصن ، فأقاموا به تحصينات منيعة ، وحفروا حوله خندقا عظيما ، ومن هنا أتخذ هذا الحصن اسم الخندق (٤) ، ولكن على عكس ما

---

(١) انظر المصدر السابق الجزء الثانى ، ص ٩٢ ، وانظر كذلك :
Genesius, op. cit., p. 46—47; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 75—76.

(2) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol I, PP. 163 — 164.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٥ .

(٤) ذكره المؤرخ البيزنطى جنيزيوس باسم خندقس Chandax ، بينما ذكرها صاحب صلة ثيوفان باسم قندقس Candax انظر ،
Genesius, op cit, Liber 11, p 47; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 76.

توقعوا ، فأنهم لم يلقوا مقاومة تذكر ، لا من جانب السلطات البيزنطية بالجزيرة ، ولا من جانب الأهالى . والباحث المدقق يرجح أن ذلك يرجع لعاملين ، الأول هو بغض الأهالى للحكم البيزنطى نتيجة لسوء معاملة السلطات لهم وتدخلها فى شئونهم الدينية . والثانى هو ثورة توماس الصقلبى وما أدت إليه من خراب الولايات التابعة للامبراطورية ، وتدهور تام فى البحرية البيزنطية أعجزها عن مواجهة الفتح الاسلامى للجزيرة .

وبخصوص العامل الأول يمكن القول انه سيطرت على الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية الروح الدينية المشبعة بالأوهام والخرافات ، فضلا عن الاعتقاد فى المعجزات والتنبؤات وإنتشار الأناشيد الدينية ، ولم يهتم الناس بالقيام شخصيا بأعمال إيجابية لتحسين أحوالهم نظرا لتأثرهم بفلسفة المسيحية التى كانت تدعو إلى التفكير فى العالم الآخر واعتبار الحياة الدنيا فترة زائلة لا قيمة لها ، ومن ثمة كان الفرد يتقبل كل شىء دون فهم أو إدراك أومناقشة وخضع لآراء الكنيسة خضوعا أعمى . (١) وقد أخذ الناس ينظرون إلى رجال الدين — الأحياء منهم والأموات — نظرة ملؤها الاحترام والتبجيل ، يلتمسون منهم البركات ويحج إلى مشاهدهم أصحاب الحاجات ، ثم يعودون بأثر من آثارهم أو رسم من رسومهم ليكون الملاك الحارس والأب الروحى لهم ولذويهم وقد تبوأت صورة السيد المسيح والسيدة العذراء المكانة المرموقة بالقسطنطينية أمامها سجد الناس يستلهمون النصر ودفع المكروه ، ومنها التمسوا البركة والشفاء وقضاء الحاجات . كما اعتقدوا أن هذه الصور تحرس المنازل . وتحمى المتاجر ، ثم ذهبو إلى أبعد من ذلك ، اذ جرى تفسيرهم للحوادث

(١) انظر المقدمة التى كتبها الدكتور جوزيف نسيم فى ترجمته العربية لكتاب كولتون ، عالم العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ، ص ١٧ .

التاريخية على ضوء معتقداتهم هذه ، فأعتبروا — مثلا — أن انتصار الامبراطور هرقل على الفرس يرجع أولا وأخيرا إلى أنه كان يحمل صورة العذراء أثناء القتال ، ، ولم يعيروا الاسباب الحقيقية كمهارته وشجاعته وقوة الجيش البيزنطى وقتها ، وغير ذلك من الأسباب أى التفات (١) .

وقد امتلأت الكنائس والاديرة بالصورة المقدسة (الايقونات) كما جرى تعليقها فى المنازل والحوانيت وطرزت على الملابس ، ونقشت على الكتب والأثاث وسائر الأدوات ، كما نحتوا لهذه الصورة تماثيل أقاموها فى الميادين العامة وعلى أسوار القصر الامبراطورى . وقد أخذ الناس يسجدون لهـا ويضيئون المشاعل والشموع من حولها ، ويزينونها بالأشرطة ، ويحرقون لها البخور ويقبلونها بأخلاص وخشوع (٢) .

حقيقة أن رجال الدين أوضحوا فى بادىء الأمر أن الايقونات ماهى إلا صور للقديسين ، غير أن العامة مالبثوا أن نسوا ذلك وركزوا اهتمامهم المباشر للايقونات ، التى بدت لهم كأشخاص واقعيين بصرف النظر عما كانت ترمز إليه. والتاريخ البيزنطى ملىء بالأساطير الدينية عن الايقونات التى تتكـلم وتتحرك .(٣)

وقد لفت هذا التدهور فى العقيدة المسيحية ، انتباه كثير من المسيحيين المؤمنين فأظهروا سخطهم على هذه البدعة منذ وقت مبكر ، وقد أخذت حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة تزداد قوة ، حتى بلغت ذروتها فى عصر

---

(١) طوقان : الحركة اللا ايقونية ، ص ص ٤—٥ ، العريني : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(2) Oman : The Byzantine Empire, p. 191.

(٣) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ٨٤ — ٨٥ .

الامبراطور ليو الثالث الايسورى(٧١٧ – ٧٤١ م) وكذلك فى عصر خليفته قسطنطين الخامس (٧٤١ – ٧٧٥ م) ، فتعرض عباد الصور المقدسة لمختلف أنواع القسوة والاضطهاد ، وجرى تعذيبهم وكى جباههم وسمل عيونهم ، وتقطيع أوصالهم والتشهير بهم ونفيهم إلى الأماكن النائيةوغير ذلك من مظاهر العنف (١) .

وقد تركزت عبادة الايقونات بصفة خاصة فى البلاد والجزر اليونانية ، والاقاليم الاوروبية من الامبراطورية ، وتمسك الاهالى بهذه العبادة ، تمسكاً شديدا ، اما الاقاليم الاسيوية فقد كانت ضد هذه العباده ، ويرجع ذلك على الارجح الى تأثر هذه المناطق بالديانات السماوية كاليهودية والاسلام (٢) .

ومن الأمتلة التى يشار اليها للتدليل على تمسك البلاد والجزر اليونانية بتلك العبادة ، ما حدث فى عام ٧٢٦ م ، حين أمر الامبراطور ليو الثالث الايسورى – اثناء الحملة العنيفة التى قادها ضد عبادة الصور المقدسة – بتحطيم تمثال السيد المسيح ، الموجود بأعلى أفخم مدخل للقصر الامبراطورى ، وكان هذا التمثال موضع تبجيل واحترام الجماهير ، وقد أدى هذا الاجراء إلى ثورة عنيفة فى القسطنطينية ، ولقى حتفه أثناءها مندوب الامبراطور الذى نفذ هذا الأمر وحطم التمثل . وعندما وصلت هذه الانباء إلى البلاد والجزر اليونانية قام فيها تمرد خطير ترتب عليه أن عساكر ثيم الهيلاس (بلاد اليونان) نصبوا من قبلهم امبراطورا وأرسلوا أسطولا لمهاجمة القسطنطينية (٣) .

(1) Ostrogorsky, op. ci,t, p. 148.

(2) Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantine, p. 257; Ostrogorsky, op. cit., p. 143.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 144, Vasiliev, op. cit., p. 258.

حقيقة أنه فى الوقت الذى تم فيه الفتح الاسلامى لجزيرة كريت فى ٨٢٧م /٢١٢ هـ كانت الاضطهادات ضد عباد الصور المقدسة قد توقفت ، إلا أن الامبراطور الجالس على العرش آنذاك وهو ميخائيل الثانى العمورى (٨٢٠–٨٢٩ م) لم يعترف بعبادة الصور المقدسة ولم يشجعها ، بل عرف عنه أن عقائده الشخصية لا تتفق معها . فهو ينتمى إلى مدينة عمورية التى كانت فيما مضى معقل اللا ايقونية ، كما جعل تربية أبنه ووريثه فى الحكم ثيوفيل Theophelus إلى حنا النحوى المعروف بمناهضته لعبادة الصور ، وعين فى كرسى البطريركية البطريرك أنطون المشهور بشدة عدائه للأيقونية ، كما أخذ الامبراطور ميخائيل الثانى يردد فى مختلف المناسبات المساوىء التى تنطوى عليها عبادة الصور المقدسة (١) .

وهكذا لم ينسى سكان جزيرة كريت الاضطهادات التى تعرضوا لها مع غيرهم من مؤيدى عبادة الصور المقدسة ، على أيدى السلطات البيزنطية ، خاصة وأن الامبراطور ميخائيل الثانى لم يتخذ أى إجراء من شأنه ارضاء الأيقونيين والعمل على كسب ودهم ومحبتهم ، ومن ثمة فقد نظروا إلى الفتح الاسلامى للجزيرة على أنه السبيل إلى خلاصهم من الحكم البيزنطى الجائر . وبالتالى لم يبدوا مقاومة تذكر للفاتحين المسلمين .

والى جانب هذا الصراع المذهبى الذى اشتغل فى داخل الامبراطورية البيزنطية ، وجدت عوامل سياسية ادت الى تدهور الموقف . والواقع ان الاضطراب السياسى بدأ ينتشر داخل الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن الثامن الميلادى تقريبا ، وذلك بعد وفاة الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧ –

(1) Bury, The Eastern Roman Empire, pp. 112—114; Ostrogorsky, op. cit., p. 181.

٧٤١ م) . اذ تتابع على الحكم فى بيزنطة عدد من الاباطرة الضعفاء ، وبلـغ هذا الضعف ذروته فى عصر الامبراطوره ايرين ، التى تولت مقاليد الامور فى بيزنطة كوصية على ابنها الطفل قسطنطين السادس بعد وفاة والده ليـو الرابع فى ٨ سبتمبر ٧٨٠م، وكان قسطنطين فى العاشرة من عمره آنذاك (١) ثم وقع الصراع بينها وبين ابنها حين بلغ سن الرشد واراد أن يباشر السلطة بنفسه دون قسيم له فى الحكم . وقد ادى الصراع بينهما الى نشر بذور الفرقة فى انحاء الامبراطورية ، وكانت الولايات الغربية بكل جيوشها من مؤيدى ايرين، نظرا لميلهم الى الايقونية التى تمثلها ، وقد اقسمت لها هذه الجيوش يمين الولاء فى عام ٧٩٠ م . على حين ان الولايات الشرقية ــ وخاصة ثغر الارمنياق ــ كانوا من مؤيدى قسطنطين ، واخيرا تغلب الحزب المناصر له ونادوا به امبراطوراً وحيدا فى اكتوبر ٧٩٠ م (٢) .

على ان ما عرف عن قسطنطين السادس من الضعف والعناد والقسوة ، أدى الى قيام الصراع بينه وبين انصاره السابقين ، وازداد تبعا لذلك انصار ايرين ، وقد ارغمه هذ على قبولها قسيماله فى الحكم فى عام ٧٩٢ م . ولكن ذلك لم يكن ليرضى طموح هذه المرأة التى كانت تطمع فى الاستئثار بالعرش وسرعان ما دبرت مؤامرة ضد ابنها قسطنطين ، وبناءً على اوامرها تم سمل عينيه وابعاده عن العرش فى أغسطس ٧٩٧ م (٣) .

وقد عاد تسلط هذه الامبراطورة على الحكم بأسوأ النتائج عـلى الامبراطورية البيزنطية فى الداخل والخارج على السواء . ففى الداخل عمـت الفوضى والاضطراب ، وأدى تنازل الحكومة عن كثير من الضرائب ،

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 157.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 159—160.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 160—161.

استجداء لرضاء الشعب ورجال الدين عن حكمها ، الى اضعاف الموارد المالية للدولة ، كما كثرت المؤامرات والفتن بين رجال حكومتها من اجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ (١) . اما فى الخارج فقد تدهورت الامور بشكل خطير ، وترتب على الانتصارات التى احرزتها جيوش المسلمين فى آسيا الصغرى ، ان تعهدت الامبراطورة بدفع الجزية السنوية التى قدرت بسبعين الف دينار ، الى الخليفة العباسى هارون الرشيد (٢) . كما اضطرت كذلك لدفع الجزية السنوية للبلغار على اثر الهزائم العديدة التى منيت بها الجيوش البيزنطية امامهم (٣) . اما فى الغرب الاوربى ، فقد وجدت البابوية فى الظروف التى مرت بها الامبراطورية البيزنطية خلال حكم ايرين ، الفرصة لقطع الرباط الواهى الذى ربطها بالامبراطورية الشرقية ، وكان ذلك بتتويج البابا ليو الثالث (٧٩٥– ٨١٦ م) (٤) لشارلمان ملك الفرنجة امبراطوراً فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م فى كنيسة القديس بطرس بروما . وقد كان هذا التتويج بمثابة الصدمة العنيفة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية لعدة أسباب ، فمنذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة فى القرن الخامس الميلادى والعالم الرومانى لايعرف الاامبراطورا واحدا هو الامبراطور البيزنطى ،الذى تمتع بسيادة ولو اسمية على الغرب بوصفه وريث الاباطرة الرومان لكن تتويج شارلمان امبراطورا أوجد : منافسا للامبراطور البيزنطى وحرم الامبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية والعالم الغربى

---

(1) Bury, op. cit., p. 212; Ostrogorsky, op. cit., pp. 161—162.

(٢) الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٦ ، ص ٣٧٩ .

(3) Bury, op. cit .,p. 340.

(٤) ديفز : اوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة الاستاذ الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٥٣ .

يضاف الى ذلك ان تتويج شارلمان ، لم يجعل منه (امبراطورا) فحسب بل الامبراطور الاساسى فى الدولة الرومانية ، لأن الامبراطورية من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى ، لا تحتمل رأسين — مثلها مثل البابوية — وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة ، لأنه امبراطور الكنيسة الرومانية ، وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزا لها .

وهكذا تتابعت الكوارث على الامبراطورية البيزنطية من كل جانب ولم تستتب الأمور حتى بعد أن قامت ثورة فى القصر فى ٣١ أكتوبر ٨٠٢ م، أطاحت بايرين وأبعدتها عن الحكم (٢) ، بل استمرت الامبراطورية تعانى من المشاكل والثورات السياسية حتى جاءت ثورة توماس الصقلبى (٨٢١ — ٨٢٣ م) لتضيف عاملا حديدا أدى إلى تعقيد مركز بيزنطة . ونظرا لخطورة هذه الثورة على الامبراطورية البيزنطية وما ترتب عليها من نتائج ساعدت على نجاح الفتح الاسلامى لجزيرة كريت ، فسيتم تناولها بشىء من التفصيل .

تجدر الاشارة إلى أن دراسة هذه الثورة تتسم بالصعوبة ، نظرا للتعقيد الذى شملها ، فقد كانت ذات أبعاد سياسية ودينية واجتماعية ، ولم تكن كباقى الثورات التى عرفت فى التاريخ البيزنطى ، والتى تكون فى الغالب ذات أسباب محددة واضحة . فان المؤرخين البيزنطيين الذين تناولوها بالشرح مثل موناخوس ، والماجستر سيميون وجينيزيوس ، ومؤلف صلة ثيوفان ، وكيدرينوس ، وزوناراس ، لم يذكروا أسبابا معينة دعت توماس للقيام

---

(١) سعيد عبد الفتاح عشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، التاريخ السياسى ، الطبعة الرابعة ، ص ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(2) Vasiliev : op. cit., p. 268

العريني : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٠٥ .

بثورته هذه ، وأن كان يستنتج من دراسة هذه الثورة وتطوراتها ، أن الدافع الرئيسى لتمرد توماس هو رغبته فى الاستحواذ على العرش الامبراطورى . أما ما أعلنه من أنه نصير عبادة الصور المقدسة ، وحامى الفقراء والمدافع عنهم فقد كان فى الواقع مجرد شعارات لكسب المزيد من الأتباع والمؤيدين تحقيقا لما كان يسعى اليه من الاستئثار بالسلطة والنفوذ .

وأول ما يصادف الباحث فى هذا الموضوع ، ذلك الخلاف بين المؤرخين القدامى حول أصل توماس فقد ذكر صاحب صلة ثيوفان أنه من أصل صقلبى «ويقال أنه خرج من أصل فقير غير معروف ، ويقال مع ذلك أنه من الصقالبة الذين ينزلون فى كثير من الأحيان فى الأناضول» (١) . أما المؤرخ المعاصر موناخوس ، فلم يوضح إلى أى عنصر ينتمى توماس ، بل أكتفى بالقول ، أنه من «أرض الروم» (٢)، وتبعه فى ذلك الماجستر سيميون الذى ذكر أنه رومى من أصل غير معروف . (٣) ولكن جينيزيوس يكشف الغموض الذى أحاط بأصل توماس ، فقد ذكر أنه من أصل أرمنى كما حدد مكان مولده على ضفاف بحيرة جازوروس . (٤)

كان توماس زميلا قديما فى السلاح للامبراطور ميخائيل الثانى العمورى Michael II The Amorian (٨٢٠ — ٨٢٩ م) وممن اشتركوا معه فى

(1) Theophanes Continuatus Liber 11 p. 50.

(2) Monachus, op. cit. p. 784.

(3) Symeon Magistri, op. cit., p. 621.

(4) Genesius, op. cit., Liber 1, p. 8.

هذا وتقع بحيرة جازوروس فى أقليم بنطس فى ثيم الأرمنياق ، وقد دعا ذلك بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يطلقوا على توماس اسم توماس الجزيورى ، انظر على سبيل المثال ،

Bury History of Eastern Roman Empire p. 84.

ثورة باردانيوس (١) . وحين انتهت هذه الثورة بالفشل ، ظل توماس وفيا لباردانيوس ، وقد استطاع توماس الفرار إلى الشام وظل هناك حتى قام بثورته

وتذكر المصادر البيزنطية أنه فى الوقت الذى قام فيه توماس بالثورة ، كان مسنا ، كما كان يعانى من العرج ، نظرا لبتر إحدى أرجله ، لكن سنه وتشويهه هذا لم يحدا من نشاطه أو يضعفا من شخصيته . فقد كان دمث الأخلاق ، مهذبا ، نظيف المعشر ، ذا شخصية محبوبة ، وكانت هذه من العوامل التى جذبت إليه الأتباع وجعلت له شعبية كبيرة . (٢)

وقد بدأ توماس عدوانه فى أواخر حكم الامبراطور البيزنطى ليو الارمنى (٨١٣ — ٨٢٠ م) فأدعى أنه الامبراطور قسطنطين السادس ابن الامبراطورة ايرين ، الذى أبعد عن العرش ظلما وبطريق غير شرعى (٣) . وبسهولة نجح

---

(١) كان باردانيوس توركوس Bardanius Turcus قائدا للقوات البيزنطية فى آسيا الصغرى فى أيام الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١ م) وفى عام ٨٠٣م أمره الامبراطور بالتوجه لقتال المسلمين فى خلافة هارون الرشيد ، ولكنه بدلا من تنفيذ أوامر الأمبراطور ، ثار وأعلن نفسه امبراطورا ، وكان مؤيدا من جانب زملائه فى الجيش وهم توماس الصقلبى وليو الارمنى ، وميخائيل العمورى ، (والأخيران توجا امبراطورين فيما بعد) . وقد انتهت هذه الثورة بالفشل ، واستطاع كل من ليو وميخائيل أن يحصلا على العفو من الامبراطور نقفور ، وفر توماس إلى الشام حيث عاش بين المسلمين . اما باردانيوس فقد انسحب إلى دير فى جزيرة بروتس Protus ، وتوفى فى أوائل حكم ليو الارمنى (٨١٣ — ٨٢٠م) . انظر تفاصيل ثورة باردانيوس فى المصادر التالية :

Genesius, op. cit., Liber 1, pp. 6—10 & Liber 11, p. 35; Theophanes Continuatus Liber 11, 52; Zonaras, Epitomae Historiarum, Liber XV, p. 339.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 53.

(٣) عبر صاحب صلة ثيوفان عن هذا بقوله :

«.. esse se Constatntinum Irene filium manifestat.»

وترجمتها باللغة العربية هى : «أظهر نفسه كقسطنطين بن ايرين» انظر :

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 51.

فى اقناع سكان آسيا الصغرى بهذا الادعاء كما تبنى أحد الرجال وكان قزما قبيح المنظر وأطلق عليه اسم قسطنطين وجعله قائد الجيش واستطاع توماس أن يخضع أرمينية وكلديا البنطسية . (١) وفى عام ٨٢٠ م حدثت مؤامرة أدت إلى مقتل ليو الأرمنى ووثوب ميخائيل العمورى على العرش البيزنطى ، فاستغل توماس هذه الأحداث ، وأخذ يصب عدوانه فى عنف . والواقع أنه وجدت عوامل دينية واجتماعية ساعدت على انتشار الثورة من مكان لآخر ، وفيما يتعلق بالعامل الدينى نجد أن حزب عباد الصور المقدسة كان ساخطا على الامبراطور ليو الارمنى ثم ميخائيل العمورى اللذين لم يكونا من أنصار العبادة وكان أصحاب هذا الحزب على استعداد للثورة والدفاع عن آرائهم ، لذلك فحين أعلن توماس أنه قسطنطين بن ايرين نصير العبادة ، اجتذب أنصارا عديدين وحظى بأييد كبير نتيجة خدعته التى انطلت على أهالى آسيا الصغرى. أما عن العامل الاجتماعى ، فالمعروف أن سكان آسيا الصغرى قد عانوا طويلا من فداحة الضرائب ، كما عانوا من تحكم وجور الحكام والموظفين البيزنطيين الذين إذا قوهم الأمرين وقد رأوا فى توماس محررا لهم من هذا النير بعد أن أعلن أنه حامى الفقراء والمدافع عنهم(٢)«ومنذ ذلك الوقت«رفع العبيد على السادة ، والجنود على القادة ، والقادة على أمراء الجيش أيديهم بالسلاح وتهيأوا للثأر من دمائهم» وذلك على حد تعبير صاحب صلة ثيوفان (٣). وهكذا نجح توماس وأبنه قسطنطين خلال فترة وجيزة فى اخضاع الجزء

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 51—52.; Genesius, op. cit, Liber, 11, p. 35;

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٩ .

(3) «hinc servi adversus heros, miles stationarius advers us cohortalem, centurio adversus exercitus ducem cruento ferro dextras armaverunt.»

انظر .

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 53.

الأكبر من آسيا الصغرى ، متبعين فى ذلك الاقناع واللطف فى بعض الأحيان والتهديد والعنف فى أحيان أخرى ، حتى أصبح يدين لها بالتبعية من حدود أرمينية حتى سواحل البحر الايجى . ولم يبق على الولاء للامبراطور ميخائيل سوى ثيم الاوبسيق الذى كان يتولاه القائد كاتاكيلاس — ابن أخت الامبراطور وثيم الارمنياق الذى تولاه الاستراتيجوس أولبيانوس (١) .

وقد أدى إنشغال توماس بأخضاع البلاد لسلطته إلى ترك الحدود البيزنطية مع المسلمين فى آسيا الصغرى بدون حراسة ، ونتج عن ذلك قيام المسلمين فى عهد الخليفة العباسى المأمون بغارات على البلاد البيزنطية القريبة ، وتنبه لذلك الجند المنخرط فى جيش توماس ، وأوضحوا له أنه بثورته تلك أنما يفتح آسيا الصغرى على مصراعيها للمسلمين (٢) وارضاء لهم قرر توماس القيام بحملة على المسلمين بالشام ، وفى صيف عام ٨٢١ م / ٢٠٥ هـ عبر توماس بجيش كبير جبال طوروس ، وهاجم البلاد الشامية ، وللأسف لم يحدد صاحب صلة ثيوفان وهو مصدرنا الرئيسى فى هذا الموضوع أى البلاد الشامية وقع عليها هذا الهجوم الذى كلل بالنصر ، لكن توماس منع أتباعه من أتيان أى عمل من أعمال التخريب أو النهب فى البلاد الشامية خوفا من غضب الخليفة المأمون . ويستطرد صاحب صلة ثيوفان قائلا : «أن المأمون أرسل وفدا لمقابلة هذا الثائر وتم أثناء المقابلة عقد تحالف بين الطرفين أعترف فيه المأمون بتوماس امبراطورا للدولة البيزنطية ، كما وعد بتقديم المساعدة العسكرية له ، مقابل أن يصبح توماس بعد وصوله للعرش البيزنطى — تابعا للخليفة العباسى يدفع له الجزية السنوية»(٣) .

---

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 53—54;
Zonaras, op. cit., Liber XV, p. 341—342.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 54.

(3) Theophanes continuatus, Liber 11, p. 54.

وكيفما كان الأمر فقد تم تتويج توماس امبراطورا عقب أبرام هذه المعاهدة ، وذلك فى مدينة أنطاكية على يد أيوب بطريرك كنيستها (١) . والواقع أن حفل التتويج هذه كانت لها أهميتها الكبرى ، إذ تعطى سلطة الامبراطور العلمانية طابعا دينيا بأعتباره ممثل الله على الارض ، وكانت مراسم التتويج تقام فى الكنيسة فى العاصمة البيزنطية ويتولاها بطريرك القسطنطينية بأعتباره الرجل الثانى فى الدولة بعد الامبراطور . ويعلق المؤرخ الانجليزى بيورى على هذا الحدث بقوله أن هذا التتويج على يد بطريرك انطاكية ، قد أضعف مركز توماس أكثر مما أدى إلى تعزيزه ، فالمعروف أنه قدم نفسه إلى أتباعه على أنه قسطنطين ابن ايرين ، ومعنى ذلك أنه امبراطور شرعى ، ثم تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية ، وهو البطريرك الرئيسى فى الامبراطورية فلم يكن هناك داع إذن لأن يتوج مرة ثانية على يد أسقف أدنى فى المرتبة ، ويمكن القول بأنه منذ تلك اللحظة خلع توماس قناعه المزيف كقسطنطين السادس ، وأخذ فى الظهور بمظهره الحقيقى كتوماس الجزيورى .

ويستطرد بيورى قائلا ، والمرجح أن اقتراح التتويج جاء من جانب الخليفة المأمون ، ولم يأت من جانب توماس نفسه ، وكان المأمون يرمى من وراء ذلك إلى هدف سياسى وهو تأكيد تبعية توماس له بعد أن يتسلم شارة السلطة

---

(١) عرض جينزيوس لهذا الحدث بقوله :

«Itaque foedus pacis init cum Agai enus sciente duce illorum coranatur a patriarcha Antiocha Iobo»

وترجمتها بالعربية «وعقد معاهدة سلام مع المهاجرين (المسلمين) وأعلن نفسه قائدهم وتسلم التاج الملكى من أيوب بطريرك انطاكية» انظر عن ذلك :

Genesius, op. cit., Liber 11, p. 33; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 54.

من يد بطريرك انطاكية الذى كان تابعا للخليفة المأمون ، وفى ذلك اعتراف ضمنى من توماس بالخليفة العباسى كسيد أعلى له (١) .

بعد ذلك خرج توماس إلى آسيا الصغرى مصحوبا بجيش كبير من المسلمين أمده به الخليفة المأمون ، كما ضم العديد من العناصر الأخرى كالأرمن ، والفرس وغيرهم ، ويقال أن هذا الجيش بلغ نحو ثمانين ألف رجل . (٢) وأتخذ طريقه إلى القسطنطينية . وحين وصلت الأنباء بذلك إلى العاصمة ، أرسل الامبراطور ميخائيل الثانى جيشا صغيرا لملاقاة الثائرين ، واشتبك الطرفان فى معركة لم يذكر صاحب صلة ثيوفان — وهو الوحيد الذى انفرد بذكر أنباء هذه المعركة — مكانها ولا تاريخها ، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة الجيش الامبراطورى هزيمة منكرة . (٣) وواصل توماس تقدمه نحو العاصمة . وقد أدرك ضرورة محاصرة المدينة برا وبحرا (٤) . ولم يجد صعوبة كبيرة فى الحصول على الاسطول ، إذ انحاز اليه أسطول كبير هايوت — على الساحل الجنوبى

---

(1) Bury, History of Eastern Roman Empire, pp. 88—89.

(2) Ibid, p. 89.

(3) Theophanes Continuatus; Liber 11, p. 55.

(٤) الواقع أن القسطنطينية كانت تحتل موقعا استراتيجيا ممتازا وهى مثلثة الشكل منها جانبان فى البحر وجانبا فى البر كانت تحميه الأسوار المنيعة التى أقامها حكامها ، وكان من المتعذر حصار القسطنطينية حصرا كاملا إذ كان لابد لمحاصرها أن يكون متفوقا فى البر والبحر معا وقد وصفها القلقشندى بقوله ..» ولها أسوار من حجارة بينها فضاء ستون ذراعا ، وعرض السور الداخلى أثناء عشر ذراعا وأرتفاعه أثنان وسبعون ذراعا ، وعرض السور الخارجى ثمانية أذرع ، وارتفاعه أثنان وأربعون ذراعا . وفيما بين السورين نهر يسمى (قسطنطينيانوس) مغطى ببلاط من نحاس يشتمل على اثنين وأربعين الف بلاطه طول كل بلاطة ستة وأربعون ذراعا وعمق النهر أثنان وأربعون ذراعا . ولها نحو مائة باب أكبرها باب الذهب وهو باب فى=

لآسيا الصغرى — وكذلك أساطيل ثيم البحر الايجى ؛ والمعروف أن أهالى هذا الثيم كانوا من أشد مناصرى عبادة الصور المقدسة لذلك فقد رحبوا ببذل المساعدة لحامى هذه العبادة ونصيرها. ويذكر المؤرخ البيزنطى جنيزيوس ، أن أساطيل جميع الولايات قد انضمت اليه فيما عدا الاسطول الامبراطورى(١). الذى كان مركزه الدائم عند القسطنطينية . كما تمكن توماس من بناء سفن حربية جديدة وسفن للنقل ، ثم أمر بأن تجتمع كل هذه الاساطيل عند جزيرة لسبوس (٢) . انتظارا لأوامر جديدة (٣) .

=

شماليها ، طوله أحد وعشرون ذراعا وهو مصبب بالحديد ، وبه أعمدة من ذهب . وبها قصر فى غاية الكبر والعلو وطريقه الذى يتوصل اليه منه يعرف بالبدندون ، وهو من عجائب الدنيا يمشى فيه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعة على صور الادميين وأنواع الخيل والسباع وغير ذلك . وفى القصر ضروب من عجائب المصنوعات وقال فى «تقويم البلدان» : وحكى لى بعض من سافر اليها أن داخلها مروج وبساتين ، وبها خراب كثير ، وأكثر عمارتها فى الجانب الشرقى الشمالى ، وكنيستها مستطيلة ، وإلى جانب الكنيسة عمود عال دوره أكثر من ثلاثة باعات ، وعلى رأسه فارس وفرس من نحاس ، وفى إحدى يديه حربة كبيرة ، وقد فتح أصابع يده الأخرى وهو مشير بها : قيل أن ذلك صورة (قسطنطين) بانى المدينة» . انظر ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ . وانظر ما جاء فى وصفها فى المصادر التالية ابن حوقل ، صورة الارض ، القسم الأول الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٩ ، ص ١٩٤ — ١٩٥ ، ابن الوردى ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص ٨٠ .

(1) Genesius, op. cit., Liber 11, p. 37; Theophanes Continuatus, p. 55. Mysia

(٢) تقع جزيرة لسبوس فى الطرف الشمالى الشرقى للبحر الأيجى فى مواجهة شواطىء ميسيا فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وتعتبر لسبوس أكبر جزيرة فى البحر الايجى ، وأهم محاصيلها العنب الذى يستخدم فى صناعة النبيذ ، وكذلك القمح ، انظر عن ذلك :

La grande Encyclopedia : vol 22, p. 82; Encyclopedia Britannica; vol 13, p. 962

(3) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 55;

كيد رينوس ، نفس المصدر ، الجزء الثانى ، ص ٧٩ . باليونانية .

بعد ذلك تقدم توماس نحو العاصمة ، متناسيا أنه يترك وراءه فى آسيا الصغرى أتباعا مخلصين للامبراطور ميخائيل ، وهم كتاكيلاس وأوليبيانوس ونجح توماس فى احتلال مضيق الهللسبونت (الدردنيل)، واخضع ابيدوس(١) وعسكر بالقرب منها «بجيش لا حصر لعدده» على حد قول جنيزيوس (٢). وقد أسند توماس مهمة الدفاع عن آسيا الصغرى ومؤخرة جيشه إلى أبنـــه المتنبي قسطنطين ، الذى لم يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه حق قدرها، فتوهم أنه لن يلقى أية متاعب ، وترك رجاله فى حالة من الفوضى وعدم النظام وكانت هذه هى الفرصة المناسبة لاوليبيانوس الذى أعد كمينا لقسطنطين ورجاله ونجح فى اقتناصهم ، وسقط قسطنطين قتيلا ، وأرسلت رأسه إلى الامبراطـــور البيزنطى الذى أرسلها بدوره إلى توماس (٣). الذى سرعان ما تبنى ابنا آخراً كان راهبا سابقا يدعى أنستاسيوس « Anastasius » ، وصفه جنيزيوس بأنه سكير ذو منظر بشع وعقل مختل (٤) ، كما أسند قيادة الجيش إلى أحد

---

(١) ترجع أهمية أبيدوس إلى موقعها الجغرافى الممتاز على مضيق الهللسبونت ، وترتب على ذلك أن أصبحت ميناء لجمع الرسوم الجمركية على الواردات التى تدخل الاراضى البيزنطية . انظر : رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٠٣ .

(2) Genesius, op. cit., p. 37.

(٤) Genesius, op. cit., p. 37; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 56.

(4) Genesius, op. cit., p. 39; Zonaras, op. cit., Tomus III, Liber XV, p. 342.

القادة المعادين للامبراطور ميخائيل الثانى ، ويدعى جريجوريوس بتروتوس « Gregorius Pterotus » (١) .

أدرك الامبراطور ميخائيل الثانى أن توماس يستعد لعبور المضايق إلى تراقيا فوجه نداء إلى سكان تراقيا يطلب اليهم أن يظلوا على ولائهم له ، وأن يحبطوا مؤامرات هذا الثائر . ولكن عندما وصل اليهم توماس بجيشه سرعان ما انضموا إليه وخذلوا الامبراطور ، وفى ذلك الوقت أمر توماس أسطوله لرابض أمام جزيرة لسبوس بالانتقال إلى العاصمة لمحاصرتها ، فنفذ الاسطول هذا الأمر وذلك فى ٦ ديسمبر ٨٢١ م فى نفس الوقت الذى أحاط فيه توماس بجيوشه من جميع جهاتها. وهكذا أصبحت القسطنطينية محاصرة برا وبحرا(٢). وقد ظن أن سكانها سيفزعون حين يرون جيوشه الجرارة تحاصرهم برا ، وقطع أسطوله العديدة تملأ مياه العاصمة ، وأنهم لن يلبثوا أن يستسلموا له . ولكن حدث عكس ما توقع ، فقد ووجه بمقاومة عنيفة ، إذ أن الامبراطور ميخائيل كان قد استعد استعدادا كبيرا لملاقاة هذا الثائر ، بأن استقدم من آسيا الصغرى — بمساعدة كتاكيلاس وأولبيانوس — قوات كبيرة على درجة عالية من الكفاءة ، اضطلعت بعبء الدفاع عن العاصمة ، فأضطر توماس

---

(١) كان بتروتوس ابن أخت الامبراطور ليو الارمنى ، وظل على الوفاء لخاله بعد قيام ميخائيل العمورى بتنفيذ مؤامرة ضده انتهت بقتله ، وقد دعا ذلك الامبراطور ميخائيل لنفى بتروتوس إلى جزيرة سكيرو Skyro احدى جزر السيكلاديز ، انظر عن ذلك .

Theophanes Continuatus, Liber II, p. 57.

(2) Genesius, op. cit., pp. 38—39.

إلى التراجع بقواته البرية ، أما أسطوله . فقد تعرض لعاصفة شديدة عرقلت نشاطه وأقصته عن مكانه أمام العاصمة ، وهكذا وجد توماس نفسه مضطرا للتقهقر بجيشه وأسطوله ، وعسكر فى تراقيا وتجاه سواحل آسيا الصغرى منتظرا أنتهاء فصل الشتاء (١) .

وفى ربيع عام ٨٢٢ م استؤنفت العمليات الحربية مرة أخرى وأعـاد توماس حصار القسطنطينية برا وبحرا ، وكان الامبراطور ميخائيل الثانى قد استغل فرصة رفع الحصار فى شتاء ٨٢١ م وزاد فى تحصين المدينة ، كما عزز الحاميات المدافعة عنها وبذلك أصبح فى حالة تمكنه من الدفاع عن عاصمته بل والقيام بهجوم ضد الأعداء . ورغم ذلك فضل الوصول إلى حل سلمى معهم ، فأعتلى السور بنفسه ووجه نداء اليهم بترك التمرد والعصيان ووعد ببذل الأمان لهم والعفو عنهم (٢) . لكن المتمردين توهموا أن الامبراطور أقدم على ذلك لحرج مركزه ، وشعوره بالعجز عن ملاقاتهم ، فتقدموا فى فوضى واستهتار لمهاجمة الأسوار ، واشدة دهشتهم فوجئوا بمقاومة عنيفة ، وفتحت كثير من بوابات المدينة واندفع منها الجند الامبرطورى وأعملوا فيهم القتل ، فأنتابهم الفزع وتشتتوا سريعا دون أن يجدوا الوقت الكافى للتصرف . وفى نفس الوقت منى أسطول توماس بهزيمة مروعة إذ ماكاد يلتقى بالأسطول الامبراطورى حتى جنح فى فوضى نحو الشاطىء ورفض بحارته بدء القتال دون سبب واضح ، وانضم جزء منهم إلى الأسطول الامبراطورى أما بقية البحارة فقد سارعوا بالانضمام إلى معسكر توماس (٣) .

---

(1) Genesius. op. cit., pp. 39—40 ; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 59—60.

(2) Theophanes Continuatus, p. 61.

(3) Genesius, op. cit., p. 40.

وبعد هذه الهزائم التى تتابعت على توماس برا وبحرا ، جمع شتات جيشه واستمر فى محاصرة القسطنطينية ، وقد وجد أنه من الأهمية بمكان أن يحصل على أسطول جديد يعوض خسائره البحرية ، فأرسل إلى بلاد اليونان وجزر البحر الايجى برسائل ينبئهم فيها بأنتصارات مزعومة ، ثم طلب منهم أن يمدوه بأساطيلهم . فأرسلوا إليه بأسطول ضخم قدره صاحب صلة ثيوفان بثلاثمائة وخمسين قطعة من السفن الحربية وسفن النقل (١) .

وبعد وصول هذا الأسطول قام توماس بهجوم برى وبحرى عنيف على العاصمة ونشبت معركة بحرية بين الأسطول الامبراطورى وأسطول توماس فى خليج بريدن Byriden عند الشاطىء الشمالى (للبروبونتيز) (٢).بالقرب من تراقيا أحرز فيها الأسطول الامبراطورى النصر ، والتهمت النيران سفنا كثيرة من أسطول توماس ، كما أستولى الاسطول المنتصر على العديد منها ، أما القسم الضئيل الذى تبقى فقد جنح إلى الشاطىء والتحق بحارته بجيش توماس (٣) . والواقع أن هذه المعركة البحرية كانت ضربة مروعة أصيب بها

---

(1) «Constabat illa cum bello aptis biremikus tum onerarus trecentis quiquaginta navibus».

وترجمتها بالعربية «اشتمل على ٣٥٠ من كلا من السفن الحربية المجهزة بقاذفات اللهب وسفن النقل» انظـــر :

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

(٢) يعرف البروبونتيز فى الوقت الحالى باسم بحر مرمرة، وهو بحر داخلى صغير يقع بين قـارتى أوروبا وآسيا ، ويربط البحر الأسود بالبحر المتوسط عن طريق مضيق البسفور والدردنيل ، انظـــر :

La grand Encyclopedia : vol 23, p. 205.

(3) Genesius, op. cit., Liber 11. p. 41; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

توماس ، وأن كانت فى الحقيقة قد أضرت ضررا بالغا بالقوة البحرية للامبراطورية البيزنطية بصفة عامة ، وبعد هذه الكارثة استمر توماس فى عملياته العسكرية حتى نهاية عام ٨٢٢ م واقتصرت هذه العمليات على المصادمات السريعة التى حدثت بين الطرفين المتنازعين وتبادل فيها الاثنان النصر والهزيمة وحرص الامبراطور ميخائيل الثانى على عدم الدخول فى معركة حاسمة لأن القوة العددية كانت لاتزال فى جانب المتمردين (١) .

وفى ذلك الوقت وقع حادث كان له أثر كبير فى التعجيل بإنهاء هذه الحرب الأهلية ، وكان هذا الحادث هو تدخل البلغار فى تلك الحرب لصالح الامبراطور البيزنطى ، وقد اختلفت المصادر البيزنطية بشأن هذا التدخل البلغارى ، فقد ذكر المؤرخ المعاصر موناخوس أن الامبراطور ميخائيل الثانى هو الذى أتجه إلى البلغار طالبا مساعدتهم (٢) . بينما ذكر المؤرخون المتأخرون نسبيا كصاحب ثيوفان ، وجينزيوس أن الملك البلغارى الذى يدعى مورتاجون Mortagon هو الذى عرض المساعدة على الامبراطور البيزنطى الذى اعتذر عن قبولها لأنه لا يرغب فى أن يراق الدم المسيحى بسيوف الوثنيين ، كما أوضح لمورتاجون أن وجود الجيش البلغارى فى تراقيا سيكون انتهاكا لهدنة الثلاثين عاما (٣) .

---

(1) Theophanes Continuatus, p. 64.

(2) Monachus, Vitae Recentiorum imperatorum, p. 788.

(3) Theophanes Continuatus; Liber 11, p. 64; Genesius, op. cit., pp. 41-42
وقد ابرمت هذه المعاهدة فى عام ٨١٤ م بين الامبراطور ليو الارمنى (٨١٣ – ٨٢٠ م) وبين ملك البلغار مورتاجون ، وحددت مدة سريانها بثلاثين عاما قابلة للتجديد وبشأن هذه المعاهدة انظر :
Zonaras : Epitomae Historiarum, tomus III, Liber XV, pp. 344-345.

والأرجح هو ما ذكره موناخوس من أن الامبراطور ميخائيل هو الذى طلب مساعدة البلغار ، وحجتنا فى ذلك أن موناخوس قد عاصر هذه الأحداث بنفسه ، وكان شاهد عيان لها ، والباحث فى التاريخ البيزنطى يجد مواقف مشابهة تعرض لها أباطرة الدولة البيزنطية والتجأوا أثناءها إلى طلب المساعدة الخارجية من حلفائهم الأجانب (١) .

ويرجع المؤرخ الروسى الأصل فازيلييف Vasilliev مارددده كل من صاحب صلة ثيوفان وجنيزيوس إلى أنه صدى لتفاخرهما القومى ، إذ كانا يعتقدان أن من العار أن يطلب الامبراطور البيزنطى المعونة من أعجمى ، أو أن يكون تدخله سببا فى نصر حاسم جنته الجيوش البيزنطية (٢) . أما المؤرخ الانجليزى بيورى Bury فقد أكد أن الامبراطور ميخائيل الثانى لم يعقد معاهدة تحالف بينه وبين البلغار ضد توماس ، وأن كان أوضح لمورتا جون أثناء المحادثات السرية التى جرت بينهما . أن هجومه على توماس وجيشه لن

---

(١) لعل أقرب مثال لذلك ما حدث أثناء ثورة بارداس سكليروس Bardas Sclerus التى أستغرقت الفترة الزمنية الواقعة بين سنوات ٩٧٦ – ٩٨٩ م فى عهد الامبراطور باسيل الثانى المقدونى (٩٧٦ – ١٠٢٥ م) فحين أصبح مركز باسيل الثانى حرجا بعد الانتصارات التى أحرزها سكليروس ، لجأ الامبراطور البيزنطى إلى الروس طالبا مساعدتهم العسكرية ، وبعد أن عقد زواجا سياسيا بين شقيقته الأميرة آن Anna وأمير كييف المدعو فلاديمير Vladimir أمده هذا الأمير الروسى بستة آلاف مقاتل من الروس ، استطاع باسيل الثانى بمساعدتهم الا نتصار على خصمه والقضاء على هذه الثورة . وبشأن تفاصيل ثورة سكليروس ومساعدة الروس للامبراطور باسيل الثانى أنظر :

Zonaras, Epitomae Historiarum, Liber XVIII, pp. 539—557.; Psellos, Chronographia, tome I, pp. 14—20.

راجع كذلك :

Schlumberger: L'epopée Byzantine vol I pp. 338—400; Ostrogorosky: History of Byzantine State p. 269 C.M H vol IV pp. 83—88.

(٢) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٤٥ حاشية رقم (١).

يعتبر انتهاكا لهدنة الثلاثين عاما (١). وهكذا يمكن القول بأن تدخل البلغار فى هذه الحرب الأهلية البيزنطية إنما تم بإيعاز من الامبراطور ميخائيل حتى يتسنى له القضاء على خصمه توماس الذى سبب له متاعب لا حصر لها .

تقدم مورتاجون بجيشه للهجوم على توماس الذى كان يرابط بقواته أمام العاصمة وحين علم توماس بأقتراب البلغار . رفع الحصار وتوجه للقائهم ، وعند سهل كيدوكتس — شرقى هرقليه — التقى الطرفان فى معركة عنيفة ، أنزل فيها البلغار بتوماس هزيمة ساحقة وقضوا على عدد كبير من جيشه ، كما أصابوا غنائم هائلة ثم انسحبوا قانعين بما حققوه من نصر ، وما استولوا عليه من غنائم (٢) . ورغم سرعة هذه العملية العسكرية التى قام بها البلغار إلا أنها كانت ذات أثر كبير فى أرهاق المتمردين والحط من روحهم المعنوية ، وبعد هذه الهزيمة جمع توماس شتات جيشه وعسكر بهم عند سهل دياباريز على بعد ٢٠ ميلا غربى القسطنطينية — وقد حالفه التوفيق فى اختياره لهذا المكان الذى أمتاز بوفرة الأعشاب اللازمة للخيل ، كما مكن توماس من الحصول على المؤن اللازمة للجيش بسهولة من القرى المجاورة (٣) .

وقد رأى الامبراطور ميخائيل ضرورة وضع حد لهذه الحرب الأهلية ، فخرج من العاصمة مصحوبا بقوات كبيرة ، كما صحبه أيضا قائديه كتاكيلاس والبيانوس ، وتوجه الجميع لمهاجمة توماس . وكان هذا الثائر لايزال مفعما بالأمل فى النصر ، كما كان مفعما بالثقة فى جيشه فوضع خطة للايقاع بالجيش

---

(1) Bury : A History of the Eastern Roman Empire pp. 100—101.

(2) Genesius p. 42; Zonaras op. cit. tomus III Liber XV, p. 345.

(3) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 66;

انظر كذلك ، كيدرينوس : ، ص ٨٧ ، باليونانية .

الامبراطورى قامت على أساس تظاهر أتباعه بالهروب حتى يتشتت شمل الجيش الامبراطورى أثناء مطاردتهم وفى تلك الحال يقع فريسة سهلة لقوات توماس (١) لكن هذا الثائر لم يدرك الروح التى تفشت فى جيشه ، فقد ثبطت عزائمهم وضعفت روحهم المعنوية نتيجة للهزائم التى لاقوها ، وخاصة أمام البلغار ، كما أخذ يراودهم الحنين لحياة الاستقرار العائلى ، بعد ما قاسوه من متاعب أثناء هذه الحرب ، التى بدت لهم بلا طائل . ويضيف صاحب صلة ثيوفان إلى ذلك قوله أنهم بدأوا يشعرون بالاشمئزاز من اراقة الدم المسيحى دون أن يحرز المسيحيون من وراء ذلك أى كسب (٢) . يضاف لذلك تذمر حزب عبادة الصور المقدسة الذى كون جزءا كبيرا من جيش توماس ، حين رأوا تحالفه مع المسلمين ، ووجود أعداد كبيرة منهم بينهم ، فأخذ يراودهم الشك فيما أدعاه توماس من أنه نصير وحامى هذه العبادة .

وهكذا ، فحين بدأت المعركة (٣) بينهم وبين قوات الامبراطور ، وصدرت اليهم أوامر توماس بالهروب الزائف ، تطور الأمر بأن أصبح هروبهم حقيقيا . ذلك أن تقدير توماس قد خاب ، فلم يتبعثر الجيش الامبراطورى ويطاردهم فى فوضى واضطراب ، وإنما تبعهم فى نظام وحذر ، وعندما رأوا ذلك ، أخذوا يلقون سلاحهم ويفرون ، أو يسلموا أنفسهم للامبراطور (٤) .

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp 66—67.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 67.

(٣) لم تحدد المصادر تاريخ هذه المعركة ، وأن كان المرجح أنها حدثت خلال النصف الأول من شهر مايو ٨٢٣ م وذلك إستنادا إلى أن توماس بعد هزيمته التجأ إلى مدينة اركاديوبوليس وظل محاصرا بها لمدة خمسة شهور . وتم تسليمه إلى الامبراطور ميخائيل الثانى فى منتصف أكتوبر ٨٢٣ .

(4) Theophanes Continuatus; p. 67; Zonaras, op. cit., pp. 346

وقد كانت معركة دياباريز هى الحد الفاصل فى هذه الحرب الأهلية ، وانسحب توماس على أثرها مصحوبا بقليل من أتباعه ، وآوى إلى مدينة اركاديوبوليس Arcadiopolis فى أقليم تراقيا وتحصن بها ، فتبعه الامبراطور وحاصر المدينة لمدة خمسة شهور ، ذاق فيها الأهالى الأمرين من قلة المؤن حتى أكلوا الخيول الميتة وجلود الحيوانات ، وأخيرا قامت فتنة فى المدينة وسلم الأهالى توماس إلى الامبراطور حوالى منتصف شهر أكتوبر ٨٢٢م فأمر بتعذيبه ثم قتله (١) .

وهكذا فشلت هذه الثورة ، فلم تحقق لمن انحاز اليها من الناس أغراضهم ولم تتحسن أحوالهم الاقتصادية ، كما أنها لم تحقق مطالب جماعة عبادة الصور المقدسة وقد كان لهذه الحرب الأهلية نتائج أخطر من ذلك ، إذ أدت إلى تخريب معظم أقاليم الامبراطورية البيزنطية ، وعلى الأخص أقليم تراقيا الذى كان مسرحا للمعارك الحربية التى دارت بين الفريقين المتنازعين ، وكذلك آسيا الصغرى ، كما شمل الخراب أيضا بلاد اليونان والجزر اليونانية التى حرمت من حامياتها التى خرجت لمساعدة توماس وسارت معه بحرا إلى القسطنطينية . وذلك على حد تعبير صاحب صلة ثيوفان . (٢)

ومن أخطر نتائج هذه الثورة كذلك ، تلك التى تتعلق بالناحية البحرية ، إذ فقدت الامبراطورية البيزنطية معظم أساطيل الولايات ، عندما انضمت هذه الاساطيل إلى توماس واشتبكت مع الأسطول الامبراطورى أكثر من مرة وانتهى الأمر بتدمير الجانب الأعظم من أسطول توماس الذى هو فى واقع الأمر أسطول الولايات البحرية البيزنطية . وقد أحسن المؤرخ أرشيبالد

(1) Monachus : op. cit., p. 788; Genesius, op. cit., pp. 43—45; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 70;

(2) Theophanes Continuatus : Liber 11, p. 74.

لويس فى بيان أثر هذه الثورة على البحرية البيزنطية حين ذكر «ويمكن القول من وجهة النظر البحرية ، أن بيزنطة خرجت عرجاء تماما من هذه المأساة ، فقد تشتت شمل أساطيل الولايات وأتت عليها الحرب الأهلية ، حين اشتدت الحاجة اليها لمؤازرة أسطول القسطنطينية ، فى الوقت الذى كانت فيه أساطيل سورية وشمال أفريقية وسائر أساطيل الأعداء الآخرين تجمع قوتها »(١) .

وإن كنا قد تحدثنا عن ثورة توماس فى شيء من التفصيل مع بيان النتائج التى ترتبت عليها ، فأن ذلك يرتبط بشكل ولو غير مباشر بموضوع استيلاء المسلمين على الجزيرة الكريتية فى ظل هذه الظروف المواتية التى تمت فيها عملية الفتح . فعندما نزل الفاتحون المسلمون بكريت لم تكن امكانيات الجزيرة الحربية تسمح لها بمقاومتهم كما لم تكن بيزنطة نفسها فى حالة تسمح لها بالدفاع عن هذه الجزيرة نتيجة للظروف العصيبة التى عانت منها ، ويمكن القول أن الفتح الاسلامى لكريت كان أحد النتائج الخطيرة التى ترتبت على ثورة توماس .

وحين اطمأن المسلمون إلى عدم وجود مقاومة من جانب سكان الجزيرة أخذوا فى غزو باقى أجزاءها . ولم يرد فى المصادر العربية أو البيزنطية تفاصيل هذا الغزو . وقد ذكر كل من فازيلييف وبيورى أن المسلمين استولوا فى وقت قصير على ٢٩مدينة لم تحفظ أسماؤها(٢) وأخذ أبو حفص ومن معه يواصلون تقدمهم وفتوحاتهم فى الجزيرة حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم (٣) . والراجح أن المسلمين أتموا فتح الجزيرة كلها فى

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ١٦٩ .

(٢) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٥٨ ، راجع كذلك :

Bury, A. History of the Eastern Roman Empire, p. 289.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٥ .

عام ٢٣٠ هـ (١) (١٨ سبتمبر ٨٤٤ — ٦ سبتمبر ٨٤٥ م) .

ووجد الفاتحون المسلمون ضرورة التماس الأمان فى الانتماء إلى الخلافة العباسية التى كانت تسيطر على الشرق الأدنى كله ، فدانوا لها بالولاء السياسى واعتنقوا المذهب السنى ، على أنهم كانوا يتمتعون باستقلال داخلى ، ولم يكن للخليفة العباسى الحق فى تعيين الولاة على الجزيرة وإنما كان الحكم فيهـا وراثيا (٢) . وكانت كريت فى التقسيم الادارى للدولة العباسية تتبع اقـليم مصر (٣) .

وبعد الفتح الاسلامى لكريت بدأت هذه الجزيرة تأخذ دورها فى الصراع مع الدولة البيزنطية ، هذا الدور الذى كان فى واقع الأمر مظهرا من مظاهر الكفاح العنيف الذى اشتعل بين المسلمين والبيزنطيين على امتداد الجزء الأكبر من العصور الوسطى . وهكذا لحقت كريت بالركب الاسلامى المجاهد ، وقامت بدورها فى الجهاد ضد العدو البيزنطى وذلك على النحو الذى سنعرضه فى الفصول التالية

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٣٢٧ .

(2) Genesius, Basileiai, p. 47.

النعمان : المجالس والمسايرات لوحة ٤١٦ (مخطوط مصور) .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ، لوحة ٤١٦ .

والجدير بالذكر أن الأستاذ الدكتور ثيبه عاقل يذكر فى كتابه «الامبراطورية البيزنطية أن كريت بعد الفتح الاسلامى لها أصبحت تدين بالولاء السياسى للدولة الأموية فى الأندلس ، ويقول فى هذا الشأن : «أنه بالرغم من أن الخلافة الاسلامية التى ساعدت توماس فى ثورته لم تتمكن من استغلال هذه الثورة لتوجه ضربة من جانبها ضد بيزنطة ، وذلك بسبب مشاكلها الداخلية الدامية فأن حملات عربية جاءت من الأندلس وتمكنت من أن تستخلص كريت من بيزنطة وتخضعها لسيادة الدولة العربية الاندلسية «لكن الثابت من الأندلسيين فاتحى كريت لم يأتوا من الأندلس إلى كريت مباشرة ، بل أنهم قضوا عدة سنوات بمدينة الاسكندرية بالقطر المصرى مشاركين فى احداثها السياسية ثم خرجوا منها إلى كريت على النحو الذى تم توضيحه فى هذا الفصل من البحث . والثابت كذلك أنهم كانوا يدينون بالسيادة للدولة العباسية وليس للدولة الأموية التى أشتد العداء بينهم وبينها انظر ، ثيبه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ ص ١٩٣ . راجع كذلك الملحق رقم (٢) من هذا البحث .